رواية

الثعلب

الجزء الأول

تأليف: أحمد حاتم عبد المنعم

الكتاب: الثعلب

المؤلف: أحمد حاتم عبدالمنعم

رقم الإيداع: ٥٧٩٤ \ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٤ - ٢٢ - ٦٩٣٣- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan





تمهيد:

٢٣ يوليو ١٩٥٢، عوامل كثيرة أدت للثورة منها انتشار الفساد وسيطرة الإنجليز على اقتصاد الدولة والعبث بالحقوق السياسية والاقتصادية، توريط الملك للبلاد دون الاستعداد لحرب ٤٨، كل الظروف لم تكن في صالح مصر مع قلة خبرة الضباط والعساكر في استعمال الأسلحة الجديدة، تسبب في إشاعات بأن الأسلحة كانت فاسدة، مجموعة من الضباط قادهم اللواء محمد نجيب يعرف (حركة الضباط الأحرار) حركة تغيير سلمي أخذت شكل الانقلاب العسكري ونجحت الحركة بالاستيلاء على مبنى أركان الجيش، وفي ٢٤ يوليو وافق الملك فاروق على رغبات الجيش، ٢٦ يوليو طالب الجيش الملك بالتنازل عن العرش مما دفع الملك فاروق للذهاب إلى إيطاليا بعد كتابة وثيقة تنازله عن العرش لولي عهده، ثم ألغى حين أصدر مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٣، بيانا بإعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي في مصر وأهمها قانون الإصلاح الزراعي ٩ سبتمبر ١٩٥٢، إلغاء دستور ١٩٢٣، إلغاء الأحزاب السياسية.

انحازت هذه الثورة للفلاح المصري بنسبة كبيرة، كان الهدف الأساسي من هذا القانون توزيع ملكية الأراضي الزراعية في مصر بحد أقصى ٢٠٠ فدان للفرد، هذا القانون حول اهتمام الدولة بالفلاح وضمان كافة حقوقه الاجتماعية وضمان حقوق منها حق التملك للأراضي الزراعية ومن هنا جاء الاحتفال بعيد الفلاح

٩سبتمبر، معاناة الطبقة الفقيرة ظلت سنوات تحت أمر الاستعمار والباشوات والخواجات، تكبدوا الجهد والتعب في سبيل لقمة العيش الكريمة، تولى الفلاحين حكم أنفسهم وانهارت طبقة باشوات مصر ملاك الأرض الزراعية وهكذا تحققت العدالة الاجتماعية التي يتمناها أبناء الطبقة الفقيرة الكادحة، شهدت مصر طفرة في القطاع الزراعي وزيادة الرقعة الزراعية مما أدى لحل جيد يحقق المساواة بين الأفراد.

كانت أغلب الأراضي الزراعية ملك العائلات الأرستقراطية من الأتراك واليونانيين المصرين ويحق لأبنائهم وأحفادهم تملك الأرض بالوراثة، لكن تغير كل شيء بعد الثورة وانعزلت هذه العائلات في قصورها بعد تدهور حالتهم الاقتصادية وتدني مستوى المعيشة إلى أقصى حد ممكن بسبب الضرائب.



زركش باشا

ولد محمد باشا زركش في قرية بندف- منيا القمح الشرقية قصر زركش في ١٩١٨ لأب كردي هو إسماعيل باشا زركش ـ أحد كبار أعيان القاهرة وأمه تركية أمينة هانم. سماه والده يوم ولادته محمد اقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعي في طفولته أحمد ثم اقتصروا على محمد وربته والدته أمينة وأخته الكبرى شريهان بسبب وفاة والده وهو حديث الولادة، تعلم محمد زركش اللغات ومبادئ العلوم في مدرسة مارسيل الفرنسية، ودرس العلوم العربية

تزوج محمد زركش السيدة خديجة هانم بنت سعيد باشا مستشار في البرلمان المصري الذي كان صديقًا حميمًا لوالده، ورزق منها بولده يوسف توفت زوجته بسبب سرطان الرئة، تزوج بعدها السيدة ناريمان وتبنى بنتها سارة البالغة السابعة عشر من عمرها، بيضاء الوجه نحيلة الأنف، خضراء العيون ذات القوام الممشوق

اشتهر محمد باشا زركش بحنكته وحكمته في اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، يفصل بين الناس بالحق ولا يرد مظلوم، ينال محبة الفلاحين والبسطاء وفي الطرف الآخر لم ينل رضى زكي باشا الخديوي من الأسرة الحاكمة عضو في البرلمان المصري رجل يشتري ضميره بالمال وصاحب عزبة الخواجة تاكي،

يستعبد الفلاحين بمرتبات يومية مخزية ويستأجرهم بالسخرة في العمل الشاق، ابنه شريف زكي اليد العليا التي تطيح لكل من تساوم له نفسه أن يأخذ حبه ذرة واحدة من عزبة الخواجة تاكي، يركب جواده الأسود ومعه سوط ذو حبل طويل يضرب به رأس عم حمزة لأنه استلقى على الأرض قليلا لأخذ وقت راحة من عمله الشاق، يتصبب العرق جسد عم حمزه، يجف حلقه، يعجز لسانه عن التفوه، ويتلعثم ...ي ..ي ..ي .يسيدي شريف ...هـ..هه قوم اهوه، ينظر إليه شريف بنظرة يتخللها الشر وتتوسع حدبة عينه ويحدق في عين عم حمزه بشدة .. إياك أشوفك نايم تاني ..انتا عارف هعمل فيك ايه كويس ...

يسرع عم حمزة في إمساك يد شريف ليقبلها.

عم حمزة: أحب على يدك يا سيدي شريف السماح المرة دي

يدور شريف بجواده حوله.

شريف: غور منا هنا

يتذبذب الخوف قلب عم حمزة أشعرته بكسرة نفس عاجزة عن التكلم خوفا من قطع الرزق ونظرة عابسة في الأرض، جسد أهلكه السوط من شدة لسعته وقوته، أنين خافت يملأ قلبه بالحزن، وقدماه عاريتان تمشي وسط شوك نبات التين ورمل منثور على جلبابه، وأصابع مشققه من كثرة قطف الحشائش.

الخواجة تاكي رجل يعمل مع الإنجليز، بدين يحمل عصا في يده يتسند عليها، خمورجي شهواني يحب النساء حبا جما ويتلذذ بمداعبة الغوازي في خمارة جباسكي يعتريه حب المظهر والجلوس في شرفة نومه، يشاهد عبر النافذة نساء الفلاحين يجمعون المحاصيل وهم يلففون قميصهم الطويل حول خصرهم وتظهر أرجلهم التي يعشق النظر إليها كل يوم، يشرف على الفلاحين ليلا ونهارا.

معه دفتر حسابات يحاسب الفلاحين بثمن بخس في نهاية اليوم، ومن يعترض على الأجرة لن يعطيه شيء وسيضرب بالسوط ليكون عبرة، من يهن يسهل الهوان عليه.

يجتمع الخواجة تاكي بشريف ذكي في العزبة قبيل الليل .. لمراجعة دفتر حسابات المحاصيل، فتح شريف الدفتر متنقلا من صفحة إلى أخرى، متشككا في بعض الأمور التي يفعلها الخواجة تاكي خلسه، وقف عند نهاية الصفحة ... فين شيكار الرز ده يا خواجة؟ ...

الخواجة تاكي: خدته معايا يا خبيبي .. ده كلو لمصلهتنا

شريف ذكي: مش كفاية عليك اللي خدته لحد دلوقتي ..

الخواجة تاكي: البخر يهب الزيادة .. وانتا عارف كويس إننا بنخميكم كويس من أي كلب، بس زي ما اتفقنا ذكي باشاه ما

يعرف شيه.

كز شريف على ضروسه، وخرج من الباب بعدما استشاط غضبا فجأة من الخواجة تاكي.

يذهب عم حمزة إلى قصر زركش ... طالبا محمد باشا زركش وشاكيا له من سوء معاملة شريف ذكي ابن صاحب العزبة، طامعا في رد كرامته أمام الناس، راكعا على ركبتيه. عيناه منهمرة بالدموع والأسى .. يتنفس من خيشومه ثم يقف فجأة وجسده يرتعش خوفا.

أصاب محمد زركش إحساس بالشفقة واللين وتغيرت تعابير وجهه فجأة ودنت حواجبه أسفل عينه، أمسك بذراعين عم حمزة وقال .. اقف يا عم حمزة لا تركع لأحد غير الله، ثق بالله وفيا إن حقك مش هيضيع ومسير العدل يتحقق في يوم من الأيام.

ينتاب عم حمزة الشعور بالخلاص ويمسح دموعه.

عم حمزة: وايه أخرة الظلم بس يا باشا، يا ريتني كت مت وارتحت من الهم ده.

محمد زركش :أخرته خير ... اوعى اليأس يتمكن منك أبدا، ولا تقنطوا من رحمة الله خليك فاكر دايما إن ربنا متطلع عليك وعارف نيتك السليمة وعلى قد ما تصبر ربنا هيجزيك كل خير.

يرتجف فم عم حمزة.

عم حمزة: يعني أمشي يا باشا وأنا مطمن خلاص؟

محمد زركش: امشي يا عم حمزة.

يتقدم عم حمزة بخطوات من الباب ثم يلتفت

عم حمزة: طب ...اف ..افرض إن الخواجة تاكي عرف إني اشتكيت على شريف باشا.

سعتها ..هي .. هيطردني زي الكلب من العزبة

محمد زركش : متقلقش ...أنا هعرف أتصرف

يخرج عم حمزة من باب القصر آملا في تجاوز محنته.

تأتي خادمة القصر زينب ..امرأة كبيرة السن مترهلة شاحبة الوجه ..ظلت في القصر سنين طويلة حتى بعد موت إسماعيل باشا وهو حديث الولادة ثم وفاة أمه أمينة وأخته شريهان في حادثة اتومبيل بسبب قطع في فرامل الاتومبيل، أخذت على عاتقها تربية محمد بعد وفاة أمه بمدة قصيرة وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حتى أصبح رجلا كبير الهامة والهيبة .. تعتبره ابنها الذي لم تنجبه وتأخذ رأيه في كل كبيرة وصغيرة وترشده دائما إلى فعل الخير والصواب، حضرت له العشاء ثلاث قطع من جبن القريش وبعض العسل من المنحل وخبز بلدي

محضر في الأفران البلدي أو ما يسمى العيش الشمسي الرقيق ... عالت صوتها لمناداة عبر النافذة يوسف وسارة، وذهبوا مسارعين لتناول العشاء في بهجة .. يسترجع يوسف كرسيه ويجلس ممسكا بقطعة من الخبز الشمسي الممزوجة بالعسل ...أبيه محمد في لحظة أوقف يوسف عن تناول اللقمة قال: سموا الله قبل الأكل

يرددان معا في نفس الوقت يوسف وسارة .... بسم الله الرحمن الرحيم، يبدآن في تناول الطعام معلقا في رقبتهم منديلا لكي لا تتوسخ ملابسهم ويأكلان بغير استعجال ولهفة، وبعد الأكل يذهبان لغسل أيدهم بواسطة إناء ماء به جردل ..تتخلل أصابعهم بالماء جيدا وينشفوه ثم ينالا قسطا من النوم في فراشهما.

تقترب زينب من أذن محمد

زينب: أفندينا .. كنت عايزه أكلمك في موضوع

محمد زركش: اتفضلي يا زينب

زينب: سارة حالتها مش عجباني اليومين دول .. كل شوية تسأل على أمها ناريمان هانم وأنا مش عارفة أقولها ايه ... خايفة عليها من الصدمة لو عرفت إن أمها خ.....

يقاطع محمد زركش كلامها بسرعة في غضب

محمد زركش: إياكي تعرفيها بأي حاجة عن أمها، متخليهاش تحس بالذنب عشان أمها مش موجودة، خليكي معاها دايما ومتحسسيهاش بأي حاجة.

زينب: مسيرها هتعرف لما تكبر أو مش هتعرف بس .. ليه نخليها تعيش حياتها كلها كدب في كدب

محمد زركش: كلمتي متتردش أبدا واللي قولته هيتسمع

زينب: حاضر .. أفندينا

قصر الحامولي باشا - بندف

يلبس محمد زركش معطفه وكوفية حول رقبته وطربوشه ويلمع حذاءه ... يذهب مبكرا إلى قصر الحامولي الممتلئ بالبساتين والمساحات الخضراء الشاهقة وأشجار النخيل العالية والعواميد المرصعة بالأحجار الكريمة وفن الزخرفة العثمانية والباب الفولاذي الصلب المذهب .. يدق الباب ثلاث مرات يسأله الخادم .. أوامرك أفندينا ..

محمد زركش: روح قول لسيدك ذكي إن محمد باشا زركش عاوزه

يصعد الخادم على السلم الدائري، يحدق محمد باشا زركش في بنادول الساعة المعلق على الحائط ويستمع لأصوات تك ..تك ...تك ..تك، يضع يديه الاثنتين وراء ظهره.

ينزل ذكي باشا بخطوات بطيئة على السلم رافعا رأسه وشاربه الذي يصل لشفتيه السفلى، لابسا بالطو طويل جلدي حيواني وخاتم من الألماس في إصبعه الأوسط، يأخذ من جيب البالطو علبة سجائر كيلوبترا و يحشرها بين فمه، يشعل عود ثقاب ويسقطه أرضا

ذكي الخديوي: أهلا بيك محمد باشا زركش في قصري المتواضع

يقوم ذكي الخديوي بمناداة حاشيته والخدم بطريقة عنجهية

ذكي الخديوي: يا رحمن .. يا أنس ... جهزوا الأكل لمحمد باشا وشوفوه يشرب ايه؟

محمد باشا زركش: أنا مش جاي للضيافة، جاي عشان أتكلم في موضوع مهم.

يشاور ذكي الخديوي بالسبابة لانصراف الخدم

ذكي الخديوي: قل ما عندك.

محمد زركش: ابنك لازم تربيه، وتعلمه إن اللي يجي على الغلبان عمره ما هيكسب.

ذكي الخديوي: ضروري يعمل كده مع شوية الأوباش دول، عشان يعرفوا كويس مين أسيادهم، فلاح من عزبتي سرق شيكار أرز، أسيبه يفلت من العقاب من غير حساب، الكل هيتحاسب قدامي، عشان أعرف مين سرق الشيكار ومد ايده في جيبي.

محمد زركش: واحد غلط وسرق، تحاسب ليه الكل على غلطة ملهمش دعوة بيها؟

ذكي الخديوي: الحرامي واحد منهم، مش هسيبهم غير ما يقولولي مين عمل كده؟

محمد زركش: ده أخر كلام عندك ذكي باشا

ذكي باشا: مفيش كلام هيتقال .. بعد اللي أنا قولته.

محمد زركش: نسيت إني عارف كل أسرارك مع الإنجليز، اوعى تكون فاكرني مش عارف ألاعيبك الشيطانية كويس.

ذكي باشا: أسرار ايه؟

محمد زركش: تهريب الكوكايين.

يرمي ذكي السيجارة ويدوس عليها بقدمه، يحمر وجهه فجأة وترمش عيناه في ذهول.

ذكي باشا: كدب في كدب.

محمد زركش: الإنكار مش هيفيدك، تفتكر إني لو بلغت الأسرة الحاكمة، هيعملوا فيك ايه ذكي باشا؟ تهمة تهريب الكوكايين في مصر حكمها الإعدام شنقا .. هتبقى وصمة عار في تاريخ الأسرة العلوية.

يصمت ذكي باشا ويغمض عيناه ثم يفتحهما ...لا يستطيع ابتلاع ريقه ويأخذ شهيق وزفير بسرعة ثم ينادي خادمه أنس لإحضار كوب من الماء، يشرب متلهفا بسرعة كأنه لم يشرب ماء قط في حياته، ويمسح فمه بأكمام البالطو.

ذكي باشا: طلباتك كلها مجابة محمد باشا، ذهب، ألماس، ياقوت، مرجان، قصر تعيش فيه لوحدك، أرض ...إلخ كل حاجة ملك ايديك.

محمد باشا: الشيء الوحيد اللي أطلبه منك، إنك تبتعد عن الفلاحين وهتركك لحال سبيلك ومش هفشي السر.

يهز ذكي باشا رأسه كأنه كلب منصاع لأوامر تابعه.

ذكي باشا: أوامرك مجابة ذكي باشا

كل ما أراده محمد باشا زركش كسر عين ذكي باشا، وإذا فكر ذكي في التذاكي عليه ليدبر أمرا ما عاجلا أم آجلا سيعرف الملك والأسرة الحاكمة بواسطة رسالة فقط في درج مكتب محمد زركش وصيته قبل الموت، أن تبعث هذه الرسالة إلى الملك، وينكشف أمره أمام الجميع وسيكون تاريخه وصمة عار على الاسرة العلوية، ذكي باشا يعرف جيدا مع من يتعامل وإذا فكر وأراد قتله سينقلب عليه الفلاحين ولن يعمل أحد عنده، وسيشك الجميع به لأنه ألد خصم لدى محمد باشا زركش، اتخذ الأمر بعقلانية ولبى طلبات محمد باشا دون أي سؤال .. هل سيدبر له مكيدة؟ أم سيكون كلبا مطيعا؟

انكشفت أوراقه كلها ولا يعرف السبب بالتأكيد سيبحث عن السبب، راودته في مخيلته أنه مشنوق بحبل في قصر عابدين ومعلق بالسقف يتدلدل لعابه للأسفل، والجميع ينظر إليه نظرة اشمئزاز وتبصق عليه الملكة نازلي، ويرميه النحاس باشا بقشر من الموز، ويتناول الملك وأمراؤه وليمتهم فوق قبره.

أحس بعد ذلك أنه في مأزق ولابد أن يتصرف وإلا سيكون العار على نسله كله.

خمارة جباسكي

يسهر الخواجة تاكي مع ضباط الإنجليز في خمارة جباسكي – بندف، طبل شرقي، مزمار تتمايل إيقاعه، بائعة الهوى ذات مؤخرة بارزة، يشرب نبيذه ويبدأ بالخمول ويتبلل سرواله الداخلي بولا، ويرقص بذراعيه مع الغازية، ضاحكا فاتحا فمه كالحمار برائحته المقززة، أصاب الغازية بالهلع والقرف، تبعده بيدها اليمنى ليبتعد عنها وتكمل رقصها، ثارت شهوته، مسك خصرها غصبا وقبلها في فمها كرها .. يأتي بعد ذلك مسرعا زوج الغازية رضوان الحلو، عاطل عن العمل يعتمد على زوجته في كسب رزقه.

يضرب زجاجة كازوزة على رأسه... يمسك رأسه بيديه الاثنتين ويطرح أرضا.

يتجمع حوله ضباط الإنجليز ويضربوا رضوان بأسلحتهم حتى الموت.. يتلهث رضوان أنفاسه الأخيرة ووجهه محفور بالكدمات ومغروق بالدماء المنثور في بقاع الخمارة.

بكت زوجته ولطمت وجهها مرار وتكرارا، صرختها تعلو المحلات المجاورة للخمارة.

سمع الناس الصراخ .... يالهوووي ...يالهووي ....يالهوووي....يا رضوااااان.

احتشد عدد كبير من الناس وأصحاب المحلات أمام الخمارة ... حضر اليوزباشي سعد البلعوطي لمكان الحادث وأمر برصد

أسلحة الضباط الإنجليز والقبض عليهم والتحقيق معهم في النقطة بتهمة القتل عمدا .. لم يعجب هذا الكلام الجنرال جون ميندي وأمر محمد ذكي باشا بالتدخل في الأمر وتواصل مع أعضاء البرلمان المصري لفض هذا التحقيق.

وفعلا مع أول مكالمة تليفونية من محمد ذكي باشا ورؤف باشا أعضاء البرلمان المصري .. لليوزباشي سعد البلعوطي هددوه بانتزاع سلطته ونفيه من النقطة إذا لم يحرر الضباط الإنجليز.

كان السكين الحاد على رقبته ولا يعرف كيف يتصرف، فاتصل بالبكباشي صلاح الصاوي.

وأعطاه البكباشي أمرا بتحرير الضباط وإلا سينال عقاب رادع من الإنجليز ومن أعضاء البرلمان، لم يجد حل آخر وحررهم.

حينها علم ذكي باشا بالأمر الذي اقترفه الخواجة تاكي في الخمارة ...استقبله في الصباح موبخا له على ما فعله سيجعل الأنظار عليه من الحكومة المصرية، ويراقبون عملي يوم بعد يوم، كانت ضربة موجعة لذكي باشا الذي كان يعمل بهدوء في تهريب الكوكايين من خلال أقفاص الحمام الزاجل يربط أنبوبة المخدرات في أرجل الحمام ويطيرها في سقف قصره.

أصبح الآن مراقب من الأحزاب السياسية المعادية لبطش الإنجليز ..بعدما علموا ما فعله لتحرير الضباط الإنجليز، كان تصرف أهوج أن يتدخل في الأمر مباشرة.

خائنة الدرب

يتفقد محمد زركش ابنته سارة ويوارب الباب قليلا ليجدها تبكي متألمة ومجروحة لفراق أمها حاملة صورة أمها في يدها متعطشة لحضنها الدافئ فأخذت الصورة الصغيرة بين أحضانها وبكت كثيرا حتى سالت الدموع إلى عنقها.

يقفل الباب محمد زركش بهدوء ويستلقي على الأريكة منهكا في التفكير المفرط في سارة.

ويتذكر زوجته ناريمان .. خائنة الدرب تهتم بالمظاهر وتفتن من أي رجل وسيم تراه أمامها، خانت زوجها بدم بارد في القصر مع عشيقها الإنجليزي جاك، أعجبها قوامه وشعره الأصفر وعيناه الزرقاء وبشرته الملساء البيضاء فتهمس في أذنه أنها تريد الاختلاء به في القصر وحدها، وزوجها محمد في الأزهر يتعلم علوم اللغة، دخلت القصر متسلسلة من الباب الخلفي هي وعشيقها جاك المتسرع في إخماد شهوته، وتفقدت الخادمة والأطفال ووجدتهم نائمين، يمشون ببطء متسللين إلى غرفة نوم محمد زركش في الطابق العلوي، تقفل الباب وتبدأ بتقبيله في فمه ومداعبة ق........

هنا يأتي محمد زركش متأخرا إلى قصره بدون ميعاد محدد في الليل المعتم متعبا من السفر.

يطلع سلم الطابق العلوي للقصر ويقترب من غرفة نومه فيسمع أصوات اهات ..هه ...هه ....هه

كفاية حرام عليك ... في هذه اللحظة انهار واقفا، مستشيط غضبا، يحكم قبضة يده بإتقان.

يكز أسنانه وأنيابه، ذهب راكضا لمكتبه في الطابق السفلي بجوار غرفة الخادمة، سمعت الخادمة أشياء صوت أشياء تتحرك وأوراق تتعكرت جانب غرفتها. قامت من نومها مفزوعة فترى محمد زركش حاملا في يده خنجرا ووجهه يثور مثل الثور الهائج بلا رحمة، شاور بيده أن تبتعد عنه ولا تيقظ الأطفال ليناموا ولا تصدر صوتا قط. تعجبت وأغلقت لسانها فورا عندما علمت منه ما تفعله زوجته.

كسر الباب محمد فجأة بقدمه ووجدهم في وضع مخل مخزي، أصاب جاك الذهول فقام مثل القطة الخائفة المتعرية يتحسس الفراش ويلبس بنطاله ..يريد مغادرة باب الغرفة لكن محمد واقف على الباب وينتظر قدومه، ممسكا وراء ظهره خنجرا .. عند الاقتراب من الباب شق بطنه عموديا للأسفل وللأعلى وتدلدلت أحشاؤه ومصارينه على سجادة الغرفة والدم مبعثر في جبينه وقميصه.

زوجته تطلب منه الرحمة تتذلل لكي يرحمها، دموع شيطانية

ماكرة أمسك بفمها جيدا قبل أن تعلو بالصراخ خائفة من ضربة من خنجره ...يمسك شعرها جيدا ويدق عنقها دون تردد أو عجز

لا يعرف كيف سيتصرف في هذا الوضع السيء؟ سارة ابنته كيف ستعيش بدون أمها فجأة؟

كيف سيتخلص من الجثتين الغرقتين بالدماء في غرفته؟ إذا رآه أحد الفلاحين ليلا ومعه جثتين؟

سيفضحه دون معرفة الأمر وسيشك به سينقل الخبر في أرجاء القرية كالحمامة، وإذا ظهر الأمر سيحاكم بتهمة القتل ويتدمر مستقبل سارة وتصبح حياتها يائسة ويوسف لا يحسن التصرف في مثل هذه الأمور، الأفكار الخبيثة.

يصيح عقله ماذا يفعل؟ لف الجثتين بمفارش بيضاء، حفر قبرين لهما في حديقة القصر جانب شجرة البلوط، ركل جثتهما لكي تسقط وردم عليها التراب جيدا، حذر الخادمة أن تربط لسانها جيدا ولا تتفوه بهذا لأحد، ولا يقترب أحد من هذه الشجرة حتى أولاده.

ظل السر مكتوما طوال سنين، يحاول أن ينسى ما فعلته زوجته بأي طريقة، كوابيس تأتيه في أحلام اليقظة كأنه يراها أمام عينيه، لا يستطيع المقاومة ويتشتت عقله فيبلل رأسه، ابنته سارة كلما سألته عن أمها لا يستطيع الرد فيتحجج أنها سافرت إلى لندن

لتتزوج رجل آخر، يريد أن يبين لها أن أمها تخلت عنها وعنه، أسئلة كثيرة تدور في عقلها هل هناك أم تتخلى عن طفلتها الصغيرة التي لم تبلغ بعد؟ أي أم هذه؟ لا زالت تحتفظ بصورة والدتها نيرمان تنظر في المرآة فتجد شبه واضح بينها وبين صورة أمها فتعلقت بصورة أمها دون أن تراها أو تتذكرها جيدا، ترى الأمهات يقبلن رؤوس أبنائهم محبة لهم وأخرى ترضع طفلها من ثديها رغم أنها مرهقة من تعب الولادة، شعرت حينها أنها وحيدة، لا أحد يهتم بها سوى والدها وخادمتها، الغيرة تمكنت منها عندما رأت أم صديقتها ايميليا.. السيدة نادية امرأة حنونة ولطيفة تعامل ابنتها برقة ونعومة ولا تستطيع رفض أي طلب لايميليا، تسرح شعرها وتضفره، تقرأ معها الكتب وتهتم بهواياتها، سارة من عائلة عريقة وستصبح أميرة لو تزوجت أميرا مثلها، كل شيء تحت قدمها وأبيها لم يتأخر عليها في شيء قط، لكن افتقدت شيء ما زال بداخلها ولا تقدر أن تزيحه بأي طريقة ممكنة.

يأخذ محمد باشا بندقية الرش من يوسف ويحذره من صيد الطيور ثانية جانب قصر ذكي باشا وإلا سيحرمه من الخروج من القصر ...

قتل عم حمزة

يستيقظ ذكي باشا مفزوعا من نومه على صوت رصاص، يحضر مسدسه من دولابه ... ينظر من البلكونة ويعلو صوته.

ذكي باشا: فيه ايه يا شوية أوباش؟

أنس الخادم: شريف باشا قتل عم حمزة.

ذكي باشا: وانتوا ازاي تخلوه يعمل كده يا متخلفين ... ازاي، اقفلوا البوابات متخلوش كلب يدخل، اللي هيدخل هطخه بالنار .

يحتشد عدد كبير من الفلاحين أمام بوابة القصر طالبين بالقصاص ويهرب شريف إلى القصر مختبئا في حضن أبيه، يأتي الشيخ حسان الدمنهوري شيخ البلد، المنافق يقبض المال من ذكي باشا لتلميع صورته أمام أعين الناس، مستعد لفعل أي شيء مقابل مادي.

شيخ البلد حسان: اوعى انت وهو انتوا بتعملوا ايه؟ عايزين تمدوا ايدكم على سيدكم اللي بيأكلكم ويشربكم، انتوا من غيره ولا حاجة

خليل الفلاح: عم حمزة اللي بقاله عشرين سنة بيخدم ذكي باشا وابنه قتلوه من غير رحمة.

شيخ البلد: قتلوه ليه؟ انطق

خليل الفلاح: بيقولوا سرق شيكار رز من مخزن الخواجة تاكي

شيخ البلد: حمزة طول عمره بيبص للي في ايد غيره، اسألوني أنا عارفه أكتر منكم.

ياما نصحته إنه يرضى بقسمته و....

يقاطع إبراهيم الجزار صاحب عم حمزة شيخ البلد

إبراهيم: كلو ده كدب وافترا، عم حمزة أشرف واحد في العزبة، بقالو عشرين سنة عمره ما مد ايده وقال يا محسنين لله، ولا كان بيلحس جزمة سيده زي ناس، هيجي دلوقتي ويسرق؟

شيخ البلد: كان مستغفلكم، وعايز يبين قدامكوا إنه شريف، بس الحمدلله إن ربنا كشف حقيقته قدامكوا.

يضرب ذكي باشا ثلاث طلقات في هواء البلكونة تحذيرا أخيرا للفلاحين من تجاوز بوابة القصر.

ذكي باشا: اللي هيعتب البوابة هقتله.

يغير حسان تعابير وجهه ويحاول إنزال دمعته استعطافا للفلاحين

الشيخ حسان: اسمعوا كلامه، الباشا لو غضب عليكم، مش هتلاقوا عيش تاكلوه تاني، وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم، لو مش خايفين على نفسكم من السجن خافوا على ولادكم وحريمكم اللي هيتشردوا من بعدكم.

خليل يترك فأسه أرضا ويخفض رأسه.

خليل: عندك حق يا شيخنا، عندي ست ولاد وعايز أربيهم

انتزعت روح الهمة من الفلاحيين بعدما سمعوا شيخ المنصر خائفين من عقاب الباشا ومن ناحية أخرى من قطع رزقهم يحنون رؤوسهم للأسفل مثل النعام.

يصيح إبراهيم بأعلى صوت.

إبراهيم: الساكت عن الحق شيطان أخرس ايه هتسيبوا حق عم حمزة يضيع؟

شيخ حسان: اتكل على الله يا إبراهيم، متشعللهاش أكتر من كده

إبراهيم: حسبي الله ونعم الوكيل فيك، ربنا قادر على كل ظالم مفتري.

يذهب إبراهيم لقصر زركش باشا حاملا معه خبر مقتل عم حمزة على يد شريف باشا، أخبره ان شيخ البلد حسان استطاع أن يؤثر على عقول الفلاحين البسطاء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، إنه مثل الأفعى التي تدس السم في رقبة فريستها دون أن تشعر الفريسة بالألم.

يهدأ ثوران الناس بكلام اخترعه هو من نفسه، والدين الإسلامي بريء منه براءة الذئب من دم بن يعقوب، لا يفهمه البعض عند

قراءة القرآن أو حديث نبوي لكنه يؤثر عليهم بالمنطق والحجة التي لا أصل في وجودها، يستحل التكلم في أعراض الأنقياء ويطعن في شرفهم.

ذكي باشا الخديوي يوبخ شريف على ما فعلته الحمقاء التي ستخسره مكانته.

ذكي باشا: الظاهر انت ما بتتعلمش من أخطاءك

شريف: حرامي وخد جزاؤه.

ذكي باشا: اللي حصل حصل، محمد زركش هعمل معاه ايه بعد ما عرف السر المدفون؟

شريف: اقتله أو ... خذ حد من ولاده وساومه بيه.

ذكي باشا: لسه عقلك صغير زي ما انت، العين علينا من الأحزاب السياسية بعد حادثة الخواجة تاكي والفدائيين مترصدين لينا في كل مكان، أنا في وضع صعب جدا.

شريف: عندك حل تاني؟

ذكي باشا: لازم منسيبش ورانا أي أثر، عشان محدش يشك فينا

يأمر ذكي باشا الخدم، بهدم قفص الحمام الذي يوجد في سقف القصر، ورمي حطامه.

وأرسل برقية إلى تجار الكوكايين في الإسكندرية الذين يستلمون بضاعته بأنه مراقب من جهة أمنية ويجب عليهم عدم العمل أو الاتصال به بأي شكل من الأشكال لحين انتهاء هذه الأزمة

محمد باشا مع إبراهيم الجزار إلى نقطة بندف، يقابل اليوزباشي سعد البلعوطي ويحكي له عما يعرفه عن ذكي باشا الخديوي وكيف استغل اسمه ومنصبه في عمل غير ذقانوني، اليوزباشي يريد ترقية عاجلة بعد سنين في الخدمة وأتقن أن هذه فرصة عمره وسيكرم عليها من قبل قادته وأمرائه، فورا جهز عساكره للخروج.

يصل يوزباشي سعد البلعوطي معه قوة عسكرية لمحاصرة القصر، ذكي باشا يتطاول عليه ويهدده بإخبار البكباشي إذا لم ينصت إليه، لم يكترث اليوزباشي بكلامه السخيف وظل باحثا في قصره بقوته العسكرية بعد تفتيش شامل لأرجائه، يبتسم ذكي باشا ابتسامة خبيثة ماكرة في وجه محمد زركش، اليوزباشي وضع أمام موقف محرج.

اليوزباشي سعد البلعوطي: أنا في غاية الأسف ذكي باشا.

ذكي باشا: مش هسكت عن المهزلة اللي حصلت هنا وأوعدك إنه هيكون أخر يوم ليك في النقطة.

لا يعطيه اليوزباشي انتباه ويأمر عساكره بالانصراف من القصر، وقع محمد زركش في الفخ الذي نصبه الداعر وخرج من القصر منكسر ومحبط.



ذكريات مؤلمة

ينظر محمد في صور معلقة على الحائط وفيات عائلته، أحبابه كلهم توفوا وأقرابه حتى زوجاته، يستعيد ذكرياته من خلال صور تشاطر أفراحه وأحزانه تلتصق بذهنه طوال الوقت تذرف دموعه اشتياقا وتنخفض معنوياته انكسارا، لا يعرف أن ينسى حادثة أمه وأخته ولا خيانة وزجته ولا موت زوجته الأولى متألمة من مرض السرطان، أهلكته المصائب، وهو مازال صلبا متمسكا بقيمه ومبادئه الراسخة التي زرعتها أمه أمينة، أرادته أن يتعلم في الكتاب مع الطبقة الفقيرة كي لا تخدعه المظاهر الكاذبة، أتى الكتاب بلبس أنيق جذاب يليق بأمير أمام أعين الجالسين، عاتبته أمه لهذا الفعل، شيخه فتحي جلده عشرة جلدات بالخرزانة على يده لعدم إتقان تلاوته وتأخره المستمر.

ذهب إلى أمه باكيا ويده متألمة، نصحته أمه ثانيا أن يتقن تلاوته ولا يتأخر.

بعد محاولات لإقناعه بالصواب يأس من أمه، ولا يتحدث لها مجددا، أقنعته أخته شريهان أن أمه تخاف على مصلحته وتريد ان تربيه تربية صالحة بعيدا عن أصدقاء السوء، تضع أملها عليه، وريث أبيه لابد أن يتصف بصفات أبيه النبيلة لكي يتذكره الناس بالخير.

أتقنت بعد ذلك على عاتقي حمل سمعة أبي وعائلتي، حضر مبكرا ولم يتقن تلاوته فضربه شيخه بخرزانته مجددا.

لم ييأس بعد، ظل طوال الليل يردد في حروف الغنة والقلقلة كي لا ينساها، أتقنها جيدا وكتبها في ورقة صغيرة.

عاد إلى شيخه مبكرا جالسا في الصف الأول، واثقا في نفسه يقرأ سورة الهمزة بتجويد ولا يخطأ حرف واحد، أثنى عليه شيخه وأراده ان يتعلم علوم اللغة العربية في الأزهر نظرا لتلاوته الحسنة وعدم يأسه من المحاولة عند الخطأ.

علمته كيف يقف احتراما للكبير، لا يتحدث إلا إذا سمح له الكلام، لا يقاطع أحدا في حديثه.

١٩٣٧

عادات وتقاليد تربى عليها منذ الصغر مرسخة في كل جوارحه، زوجته نيرمان التي أحبها من كل قلبه المخلص، لا يرى امرأة سواها، فضلها عن غيرها في كثير من الأوقات، قابلها في حي الموسكي صدفة بعينين بنيتين واسعتين وجبهة عريضة وفم ترسمه ابتسامة جذابة وضحكة على خدود ممتلئة، نظرت إليها كأني أعرفها من قبل، استثارتني ضحكتها الجبارة ومنديلها القماشي الرقيق التي تفوح منه رائحة كالونيا، التفتت مرة واحدة ومشيت في طريق السوق، أسقطت منديلها أرضا، أمسكت منديلها، تكلمت من ورائها ....مازمازيل نسيتي منديلك.

نيرمان: ميرسي أوي سيدي..

يبتسم محمد ابتسامة خفيفة و يتطلع بسرور.

محمد: اسمي محمد زركش

نيرمان: تشرفنا محمد

محمد: الشرف ليا، عموما لو عايزه تشتري حاجة في الموسيكي قوليلي وأنا هدلك.

تطلق كلماتها بحماس شديد.

نيرمان: كنت عايزه اشتري عود شرقي

محمد: بتحبي تسمعي مين من المطربين؟

تغني بصوتها النحيف العذب مرهف الإحساس

نيرمان: سيد درويش .. اهو ده اللي صار، وادي اللي كان، ملكش حق، ملكش حق تلوم عليا.

تلوم عليا ازاي يا سيدنا، وخير بلدنا مهوش بأدنيا، قولي عن أشياء تفيدنا، وبعدها ابقا لوم عاليا.

يصفق لها تصفيق حار مع نظرة إعجاب.

محمد: عمري ما شوفت أجمل من إحساسك الرهيف على القلب واللي بيشجن الشجر والورد بمية الأمل.

نيرمان: ده من ذوقك محمد.

محمد: موهبتك جميلة ممكن توصل للنور وتشرق شمس لسه طالعة من جديد.

نيرمان: تفتكر ممكن؟

محمد: وليه لا، تعالي بكرة مبنى الإذاعة هستناكي الساعة عشرة الصبح.

نيرمان: بتتكلم بجد؟

محمد: هههه اومال بهزار؟

يوصلها إلى محل تشتري منه عود خشبي صغير ويتبادل معها النكات والضحكات العالية، في اليوم التالي وصلت نيرمان لمبنى الإذاعة، استقبلها محمد زركش بترحيب وعرفها على المطرب الشاب عبد الوهاب الذي لمع بريقه وقتها في الحفلات الغنائية، لم يمنع الآخرين من مهاجمته وخاصة من المطربين الذين تخوفوا من شهرته مثل منيرة المهدية التي طردته من أوبريت كليوباترا ومارك انطوان وكذلك هاجمه العقاد والمازني (كان العقاد والمازنى قد أصدرا كتاب الديوان هاجما فيه أحمد شوقي). يمكن القول أن العلاقة بين عبد الوهاب وأحمد شوقي علاقة وثيقة ذكرها عبد الوهاب كثيراً في أحاديثه وكان دائما يعترف بفضل أحمد شوقي عليه، ولحن له العديد من القصائد مثل: دمشق، النيل نجاشي، مضناك جفاه مرقده.

تتفاجأ نيرمان، تكاد تدمع عيناها من شدة فرحها، تفتح فمها

نيرمان: مش مصدقة نفسي، بجد يا أستاذ انت ألهمتني بالسعادة لما بسمع صوتك في الراديو.

عبدالوهاب: متشكر جدا يا مازمازيل .....

محمد زركش: نيرمان

عبدالوهاب: اسم جميل، محمد باشا زركش صديقي قالي إنك صوتك مرهف، سمعيني.

غنت له جفاه مرقده، بصوتها الشجن الذي كان سمفونية ملساء تعلو إيقاعها وتدني مثل الناي، أقنعها عبدالوهاب أن تغني نشيد لك يا مصر السلام غدا في الإذاعة ... شكرت محمد زركش على هذا المعروف الذي لن تنساه طوال حياتها، طلب محمد منها الزواج وسيلبي كل طلباتها، وافقت في الحال دون تردد.

لا تحب محمد في شخصه لكنها تريد أن تستغل نفوذه، تريد أن تصل إلى هدفها مهما كانت العواقب التي أمامها، الإسكندرية (سيدي بشر) قام زوجها الأول عبد المجيد محاسب في شركة تموين بالطلاق منها نظرا لعدم تأدية واجباتها بحقه، عدم الاهتمام بشؤون البيت والمسئولية، تقضي حياتها في سهرات القمار مع أصدقائها ولا تهتم بابنتها سارة الرضيعة التي لم تنعم بحضن دافئ في الليل، تهتم بالمظاهر الكاذبة الخادعة وتصرف مال زوجها في القمار، كلما تخسر تنفق المال، وإذا خسرت المال تبيع شيء من البيت وترهنه لحين سداده، حتى أصبحت معيشتها كلها ديون من الكازينو، حذرها عبد المجيد كثيرا من لعب القمار لكنها لم تستجب وأصرت على هذا الأمر حتى أصبح عفش البيت كله مرهون لطوب الأرض، صرخ في وجهها وعاملها كجارية لكي تستفيق من هذه الحياة القذرة، هربت منه إلى بيت أهلها خوفا منه ومعها ابنتها سارة، قام الكازينو وأصدقائها برفع دعوى قضائية على زوجها توجب سداد دين زوجته، سدد جزءا كبيرا والباقي لم يكمله ثم احتجز في السجن لمدة ١٠ سنوات.

عديمة الإحساس تركت زوجها في السجن يدفع ثمن أخطائها ولم تأت له يوما حاملة ابنتها معها، أرسل إليها ورقة طلاقها.

أعرف أنك أخطأت بسبب تجاهلك لي وعصيانك أدى إلى حدفي في مستنقع مظلم تشمله قطاع الطرق والقتلة والسارقين، أضعت مستقبلي ومستقبل بنتنا سارة التي لم تستوعب بعد ما فعلتيه بنا، أدركت الآن أنني على خطأ، أندم يوم بعد يوم على كل يوم قضيته معك في بيت واحد، لا تستحقي حبي أبدا، لن أسامحك مهما فعلتي بي، لوثتي شرفي بين أقاربي والناس وأهلي التي كانت تعتبر كل ما أملك من حياتي، لماذا فعلتي بي هذا؟ أعطيتك كل شيء، لم أبخل في يوم حتى بابتسامة أو ود، أتوعد لكي عندما أقضي هذه السنوات البائسة الحقيرة سوف أقول لابنتي سارة حقيقتك، وسأعود لكي أنتقم من روحك الخبيثة.

انتي طالق ... طالق ....طالق

وضعت ورقة الطلاق على الكومودينو ونامت نوما عميقا، لا تدرك شيئا من حولها.

رياح شديدة وأمطار غزيرة في ذلك اليوم، صوت خرفشة النافذة لا يحكم إغلاقه جيدا أدى لدخول هواء كمثل العاصفة، بعثر الأوراق المتراصة وسقطت ورقة الطلاق مثل الريشة تحت السرير، عندما استيقظت تذكرت الورقة أرادت أن تحرق الورقة

خوفا ان تقع في يد أحد من أسرتها، أشعلت عود ثقاب، تندهش بفراغ حقيبتها، فراغ أدراج الكومودينو.

إذا وقعت الورقة في يد أحد من أسرتها سيعلمون ما فعلته بزوجها.

استشعرت بتحرير قيودها وفتحت دولابها ولمت أغراضها كلها وودعت أهلها، سافرت إلى بعيد لكي لا تلفت أنظار الجميع إليها، تريد أن تنسى ماضيها الذي يؤرقها وتبدأ حياة جديدة مع ابنتها في الموسكي القاهرة، في لوكاندة رخيصة الثمن أشبه بمستنقع كريه، تسوده الفواحش.

تزوجها محمد زركش حبا في شكلها الجذاب الذي يوحي بالبراءة والحنان لكنه لم يعرف سلوكها الخبيث جيدا إلا بعد أن تزوجها، بعد أن لمع سيطها في الإذاعة تعرفت على كثير من فنانات الوسط الفني المعجبين بصوتها الدافئ، أقنعتها بديعة مصابني أن تحي حفلا غنائيا في كباريه النجوم الذي يحضره كبار الوسط الفني ورجال الدولة، تغاضى محمد عن بعض الحقوق الزوجية التي كانت لا تقوم بها طبقا لرغبتها الجنسية ولكنه لا يتغاضى أبدا أن تقف امرأته تغني في كباريه وسط أناس ينظرون إلى جسدها الممشوق وثديها الكبير ووجهها الجذاب البريق وخصرها النحيف، يتهامس الناس على جمالها، هواجس ملأت عقله وشتته.

منعها من ذلك، ردا عليها أنه رجل متدين تحكمه غيرته وتضبطه عاداته وتقاليده التي تربى عليها.

وافقت لأنها علمت أنه عنيد ويستحيل أن يغير قرار اتخذه، ولا تريد ثانيا أن تخسر كل شيء.

وجدت الطريقة الأمثل لتفعل ما تريد أن تخفي كل ما تفعله سرا عن زوجها، سهرات ليلية في كباريه، لعب قمار، تأخذ مشروب بيرة مع شاب يريد أن يتعرف عليها وهكذا هي حياتها تجذب شباب من حولها، إذا لم ترتح معه في الفراش وجدت آخر ترتاح معه، تعود في الليل إلى القصر ورائحة البيرة تفوح من فمها، وتتحجج أنها كانت عند أهلها في اسكندرية تزورهم، أعطاها محمد ثقة عمياء دون أن يجادلها لكنه استغرب من تصرفها في هذا الوقت المتأخر .. اقترب منها وهيا نائمة في أحلام سعيدة في فراشه ووجد رائحة فمها كريهة جدا.

فعلم من رائحتها أنها كانت تشرب خمر، أيقظها بقوة وحزم وسألها ...انتي كنت بتشربي؟

ترمق عيناها وتهرش فروة رأسها في خمول هوا الشرب حرام ولا ايه؟

يصفعها محمد على وجهها ويخرج من فراشه لكي يتوضأ ويطهر نفسه من الدنس وصلى ركعتين لله توسلا أن يطهر قلب زوجته.

ترجته أن يسامحها على شربها ووعدته أنها لن تشرب ثانية.

أراد منها في المقابل أن تترك الإذاعة لتهتم به وتهتم بابنتها سارة التي تكبر دون وجودها، رفضت مطلقا ضياع مستقبلها ونفوذها، يقوم بإنذارها: كوني على علم جميع ممتلكاتي بيدي أنا، لو مش بنتك صعبانة عليا كان زماني طلقتك ورميتك في الشارع لكلاب السكك.

أدركت أنها لو تطلقت ستخسر القصر وثروة زوجها ... تريد أن تشعره بالطاعة والسكون مع تعبيرات وجهها الشيطاني الماكر دون مجادلة ....اللي تشوفه اعمله انت زوجي ومن حقك تربيني أنا طمعانة إنك تسامحني ... تقبل يد زوجها بكل امتنان.

قلبها الخبيث لا يتغير تغلبت عليها شهوة المال والسهر والجنس تستغل خروج زوجها من القصر وتقوم بالفعل المعتاد عليه، ديل الكلب عمره ما هيتعدل.

شبح الخطيئة ما زال يطارده في أحلامه، كوابيس تأتيه تنقص قدرته على الحركة، العرق ينهمر سائلا من وجهه، يسمع صوت نداء الفجر الله أكبر الله أكبر .....الله أكبر الله أكبر

يتعلق الصوت في ذهنه ولا يفارقه كأنه أمل وجد نبراسه يشع فجأة.

يردد: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ....يتوضأ

ويذهب للمسجد.

يصلي خاشعا وراء الإمام الشيخ فتحي، علامات الحزن على وجهه ظاهرة.

يسأله الشيخ فتحي: ما لي أراك حزينا يا بني؟

محمد: كابوس مش عارف أخلص منه، صحيت لقيته فجأة قدامي زي الشبح فين ما بروح بيروح ورايا مش عايز يحلني، مش عارف الأيام الجاية مخبية ليا ايه، حاسس إني مخنوق من رقبتي ومش قادر أتحرك، نفسي أنسى كل لحظة عشتها مع ناس ما يسحقوش اني أعيش معاهم وعلى كل دمعة بكيتها وأنا متألم وخايف من اللي ممكن يحصل.

منكرش إني يأست واستسلمت للكوابيس، بس لما سمعت الآذان كل اللي بفكر فيه راح زي الهوا من عقلي، أرجو إن ربنا يسامحني على كل ذنب عملته.

الشيخ فتحي: ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

محمد: ونعم بالله.



تهديد صريح

ركب ذكي باشا سيارته فولكس فاغن بيتل، ينزل من سيارته ويستقل سلم قصر زركش.

يدق الباب ثلاث مرات، تفتح له الخادمة.

ذكي باشا: محمد باشا زركش موجود؟

الخادمة: موجود أفندينا، اتفضل

يدخل الصالة الواسعة مرفوعة هامته ورأسه، وبيده اليمنى سيجار لم يدخنه بعد.

تخبره الخادمة باستقبال ذكي في الصالة، يمشط شاربه وشعره ويضبط قميصه المكرمش.

يدخل عليه بزعابيبه.

محمد: عايز ايه يا ذكي؟

ذكي: هي دي طريقة استقبال الضيوف عندك؟ ده مش من أخلاقك، أنا سمعت إنك كريم.

محمد: وَإِنّي لَعبدُ الضَيفِ مِن غَيرِ ذِلَّةٍ

وَما فِيَّ إِلّا تِلكَ مِن شيمَةِ العَبدِ

ذكي: اوعى تكون فاكر إنك هتضحك عليا بشويه الشعر والقرآن اللي انت حافظهم ممكن تأثر عليا زي ما عملت مع الفلاحين اللي خليتهم يتمردوا على أسيادهم.

محمد: حاشا لله، يكفيني أني أقول الحق وأنا مرتاح الضمير وبعدين الفلاحين اللي تمردوا عليك دول بسبب ظلمك ليهم انت عارف يعني ايه ابنك يقتل نفس بريئة؟ يعني عقابه كبير عند ربنا.

ذكي: حسابك تقل معايا وهديك أخر فرصة إنك تتراجع عن اللي بتتعلمه وإلا هق....

يقاطعه محمد معارضا له.

ذكي: وإلا ايه ....

محمد: هقتل أولادك اللي باقيين من حياتك، ساعتها بس هتعرف إنك غلطت غلطة عمرك.

لا يستطيع محمد التفوه بأي كلمة، تتعرق جبهته ويمسحها بمنديله، كأنه اصطدم بشيء صلد لم يكن بحسبانه، كيف يهدد عائلتي بالقتل؟ أمسك بنقطة ضعفي وسيطر عليها بكامن قوته، أولادي هم من سوف يحملون اسمي هل سأتخلى عنهم مقابل الحق الذي ينير عقلي وقلبي ويهديني إلى الصراط المستقيم، هل سأخذل الفلاحين الذين وثقوا بي طوال السنين؟ أسئلة كثيرة

تسيطر عليه، ولا يستطيع الإجابة، صمت وصرخ ان فلم أعد أحتمل المزيد من الآلام والأحزان وصلت إلى مرحلة الهدوء النفسي وسط رياح شديدة تهب بغزارة، ذلك الهدوء المصاحب بالألم، اكتفيت أجل لن أناضل مجدا، ها أنا أرفع راية الاستسلام فلقد وهن عظمي وضعفت قوتي وتساقطت معنوياتي وتحجرت دمعتي فأصبحت كجبل راسخ لا يتزحزح من مكانه، كنت أعتقد أنني سأبوح عما في قلبي وسأنصر الحق، كلما اشتعلت نار أخمدتها لتنطفئ، تعود مرة أخرى بلهيبها ولم أستطع إخمادها، ظننت أنه سياتي يوم لتتطاير فيه هذه الحمم المشتعلة، أتساءل أين تحجر ذلك البكاء؟

أصابه الكبت النفسي وأغلق نوافذ شرفته... سامحني يا رب ما باليد حيلة، فقدت أبويا وأمي وزوجاتي بس مقدرش أعيش من غير ولادي، دول اللي بيهونوا عليا تعب السنين اللي دقته، لو ماتوا مين هيشيل اسم زركش بعد ما أموت؟ مش هتخلى عنهم مهما حصل

يأتي عم إبراهيم حاملا أخبار تعيسة، منحنيا ظهره، جلبابه الممزق أشلاء وشفته المشققة.

عم إبراهيم: الحقنا يا محمد باشا، عدمونا العافية .... شريف باشا سحلهم في الغيط وأكلهم التراب وضربني بالكرباج على ضهري

محمد: ليه عمل كده؟

عم إبراهيم: الخواجة تاكي كال حقنا، شغالين من الصبح لطلعة النهار ومخد ناش تعريفة.

ولما طلبنا يوميتنا اتقل بينا ومسحوا بكرامتنا الأرض.

محمد: ربنا قادر على كل ظالم، ملناش غير الدعاء

عم إبراهيم: يعني ايه الكلام ده؟ مش مصدق نفسي، محمد باشا اللي اسمه يرعش رجالة بشنبات واللي سمعته تتاقل بالدهب، يتخلى عننا في وقت زي ده؟ احنا ملناش بعد ربنا غيرك.

انتا نورتنا بعد ما كنا عايشين عبيد تحت ضرسهم، جاي دلوقتي تسيبنا؟

يمسك يده ليقبلها متوسلا واضعا أمله فيه.

أحب على يدك يا بيه .... أحب على يدك.

يسحب محمد يده إرضاء له.

محمد: استغفر الله .. صدقني ما باليد حيلة.

5يناير، عام ١٩٤٦

اغتيل أمين عثمان باشا وزير المالية أيام حكومة مصطفى النحاس التي فرضها الإنجليز بقوة إضافة إلى أنه كان أكثر من صديق للإنجليز ومساندًا لبقائهم في مصر وصاحب نظرية الزواج الكاثوليكي بين مصر وبريطانيا ، واتهم في القضية عشرون شابًا من ضمنهم محمد أنور السادات، وكان المتهم رقم ٧ في قائمة اتهام النيابة التي وجهت إليه تهمة الاشتراك في مقتل أمين عثمان، وبعد قضاء ٣١ شهرا بالسجن حكم عليه بالبراءة، وواجه الحياة بلا مورد مالي وضاقت به الدنيا، حتى استطاع في أواخر العام ١٩٤٨ أن يحصل بمعاونة الكاتب المعروف إحسان عبد القدوس على عمل كمحرر صحفي بمجلة المصور بدار الهلال التي وافقت على نشر مذكراته أيام السجن. حيث أخذ في كتابة سلسلة مقالات دورية بعنوان ٣٠ شهراَ في السجن، وكتبت المجلة في تقديم الحلقة الأولى من المذكرات:

"اليوزباشي محمد أنور السادات هو أحد المتهمين في قضية الاغتيالات السياسية مع حسين توفيق وحكم ببراءتهم وهو أقوى الم تهمين شخصية وأكبرهم عمراَ وأكثرهم ثقافة وتجربة .. وكان قد عكف أيام سجنه على تدوين مذكرات تصوِّر الحياة داخل السجن أصدق تصوير، وهذا هو الفصل الأول من تلك المذكرات التي سنوالي نشرها تباعًا

اندلعت انتفاضة فبراير ١٩٤٦ أساساً بين الطلبة في القاهرة بعد أن افتضح أمر مفاوضات سرية أجرتها الحكومة المصرية مع الإنجليز، خرج المتظاهرون إلى الشارع يحملون شعارات "لا مفاوضات في ظل الاحتلال"، وأطلق البوليس النار لتفريق المتظاهرين، وبينما كان المتظاهرون في طريقهم لقصر عابدين، قامت الشرطة بفتح كوبري عباس عليهم.

وكانت الانتفاضة الشاملة في أغلب مدن مصر الكبرى تعبيراً عن فقدان الطبقات الحاكمة سيطرتها على جموع العمال والطلاب والفقراء في مصر نتيجة لعجزها الواضح عن إخراج البلاد من الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

الشارع المصري ينقلب رأسا على عقب، موجات الراديو الصوتية تنتقل لتبث الخبر، صهللة وصخب في القهاوي، الميادين، المدارس، المباني الحكومية، وجدانهم الوطني تحرك من داخلهم ... الاستقلال التام أو الموت الزؤام ... كلمات لزعيم الأمة الراحل سعد زغلول يردودونها معا في نفس واحد، يحدقون للسماء ويطلقون تنهيدة العناء، بحر يموج بالطرابيش غارقة بالحماس، وأعلام مصر مرفرفة في السماء تعتلي طولهم يقوم الخواجات بقفل الصوائغ خوفا من احتشاد مظاهرة، أصحاب الدكاكين يهلعون قلقون من تلف بضاعتهم اثناء الاحتشاد ....ميدان طلعت حرب، نمل مرصوص من كافة الطوائف يهتفون باسم الحرية من

بينهم مجموعة تخريبية تقوم بتدمير الممتلكات العامة، كسروا زجاج الصوائغ، محلات البوتيك، قاومهم عسكري انجليزي صفع زوجة فتوة الأزبكية على وجهها بعدما قامت بدفعه عنها، ضربوه حتى نزف أنفه دما، خلعوا بنطاله، وأمسكوا رجليه، سحلوه أرضا أمام المارة

يضربه فتوة الجمالية، عطوة بو سنة بالنبوت فوق رأسه يحكم قبضة يده، يشمر اكمامه،

فاكرين انكوا هتنهبونا وتمشوا من غير ما نعلم عليكوا يا ولاد.......

ضربة ساحقة جعلته في دوار كأنه في بحر يغرق، ضربة في أمعائه أمكنته من تقيأ الكحول

العسكري الإنجليزي: هيلب هيلب بلييز، دونت فاك مي

يركله البوسطجي حسنين السيد بحذائه

..فك مي ايه يا بن الغازية، ده احنا هنعمل منك كفته وهنحطك في سيخ

يمشي الشيخ فتحي بجوار وسط الهتافات العالية الصاخبة، يرى عسكري إنجليزي

يدوسه الناس بأقدامهم ويبصق عليه الصغار، يشهل عندهم قوام

الشيخ فتحي: جرا ايه .. بتعملوا ايه؟ هتموتوا الراجل في ايدكم.

عطوة: سبني عليه خليني أطلع غلي وكبتي اللي فضل سنين جوايا

الشيخ فتحي: الرحمة يا معلم عطوة.

عطوة: ده ميستحقش الرحمة، يضرب مراتي الكلب الخسيس ده

الشيخ فتحي: خد جزاته يا معلم، كفاية عليه كده.

لا يبالي عطوة بكلام الشيخ ويستمر في ضربه حتى أصبح وجهه غارقا بالدماء.

عطوة: يا رجالة امسكوه وعلقوه في العمود ده

حرافيش الفتوة: أوامرك يا معلم.

العسكري الإنجليزي: بلييز نوه نوه نوه ، ايم سوري

يعلقونه على عمود الإنارة بقرب الميدان، يهلل المتظاهرين ... الله اكبر ... الله اكبر

الشيخ فتحي: يا معلم احنا اتربينا على الشهامة والأصل وعمر ما كانت الشهامة بالافتراء

عطوة: اومال بايه ... دي عالم عايزه ربايه.

حسنين: تسلم ايدك يا سيد المعلمين، الواد وشه مش باين من قفاه

عطوة: ده جزاة الي يتعدى على حورمة بيتي.

وصلت إخبارية للجنرال جون ميندي بوقوع مظاهرة وحادث لعسكري إنجليزي في ميدان طلعت حرب، أمر عساكره بتجهيز أسلحتهم ومحاصرة الميدان في ثلاثة شوارع ممكن أن يهرب منها المتظاهرين، رصفوا الصفوف باتجاهين متعاكسين، شهروا البنادق، أعدوا القنابل الدخانية، المركبات الإنجليزية تحاوط أرجاء الميدان، كشبكة عنكبوت تتفرع منها الخيوط اللزجة التي تلتصق بالفريسة، يلتفت المتظاهرين يمينا ويسارا، فلم يجدوا مفر البنادق في كل جزء من الشارع، وفجأة يتوقفون لالتقاط الأنفاس وسط قوة غاشمة

الجنرال جون يتحدث من خلال ميكرفون .... على كل المتظاهرين الانبطاح أرضا ....

مازالوا واقفين شامخين رافعين الرايات متأهبين للحظة مقاومة الإنجليز، يقومون بالتقاط الحجارة من الأرض ويرمونها كمثل النيزك على أعدائهم، حجارة سرعتها كصاروخ فضائي رماها صبي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره صفت عين عسكري إنجليزي ...مع سيل وابل من الحجارة تراجع الصف الأمامي للإنجليز، أمرهم الجنرال بإطلاق القنابل الدخانية فورا قبل أن يتم الهجوم عليهم، بدأ الجو كضباب غير متباين ألوانه، الرؤية ضعيفة جدا وسط المتظاهرين عليهم بالتنحي والتفرق بعيدا عن الدخان وإلا

سيختنقون من رائحته، مجموعة تفرقت مسرعة لأول شارع متفرع من الشارع الرئيسي، انتظرهم كمين، محشو بالبنادق ثم أطلقت النيران دون شفقة، جثث تتطاير كحمام متساقط، الشهادة تنطق بألسنتهم، الدماء كحوض استحمام تملأه تبعثرت الجثث لحظة وقعوهم طلقة أصابت صدر رجل عجوز ... ابنه شاهده وهو يموت أمام عينه، لا يطيق تحمل المنظر، ركض نحو جثته باكيا، قبل يده ومات بطلقة في رأسه بواسطة قناص في البناية الأمامية، المتظاهرين سمعوا صوت الرصاص يدمر طبلة أذنهم، الخوف يسيطر على تفكيرهم وينظرون من حولهم

المعلم عطوة صارخا في وجوههم .. اللي هيتحرك من هنا هيموت .. ده كمين

يقوم عطوة والشيخ فتحي بلف عمته حول فمه ويضم زوجته عليه، الحرافيش ..هنعمل ايه يا معلم؟

خليكوا مكانكم وخلوا بالكم من المعلمة ....

الشيخ فتحي: انت رايح فين يا معلم؟

عطوة: رايح أقطع رأس التعبان

زوبة زوجة عطوة: خدني معاك يا خويا مقدرش أعيش من غيرك

يحضن عطوة زوجته ويقبل رأسها ... متخافيش عليا، لو مت

لا تتمالك زوبة نفسها، تنهمر كالطفل الباكي، خاشية من ردة فعله المتهورة، يمشي عطوة ببطء في الصف الأمامي، زحام متكدس من العساكر الإنجليز يقودهم الجنرال جون الذي يصوب مسدسه تجاه المتظاهرين، من يركض بعيدا عن الدخان ..

عطوة: شوفوا يا رجالة لحظة ما يعمروا السلاح .. نجري عليهم بالرصية

لحظة تعمير البنادق اليدوية .. حشد جماعي كالثور الهائج يتخطى الصف الأول، ضرب مبرح للإنجليز عطوة يضرب رأسين في وقت واحد بنبوته، يركل ضابط في خصيتيه فيصرخ من شدة

الألم ...أأأأأهه.... ويعطيه كف على وجهه يرقده أرضا، يحكم قبضة نبوته ويشاهد الجنرال جون يقتل صبي صغير بمسدسه، لهيب أشعل قلبه فجأة وغيرة الوطنية تحسست قلبه، أحكم قبضة نبوته واقترب من حصان الجنرال، دك رأس الحصان بنبوته الخشبي الفولاذي، طرح الحصان أرضا، انزلق كالقطة وقعت قبعته، مسدسه طاح أسفل الحصان، استمد قوته عاجلا يبحث عن مسدسه فيجد الفتوة واقفا أمام عينيه كالأسد لا يهاب شيء، تأتيه طلقة غدر من وراء ظهره تمزق قفصه الصدري، يثني ركبتيه ساقطا على رأسه محدقة عيناه، فراغ صغير في صدره حطم عظمه

ومزق الأنسجة الدموية والدماء كشلال ماء يبث في أنحاء الشارع، بعد نصف ساعة فقط عم السكون الشارع، خلايا الذباب متعطشة للدماء وسط جثث كثيرة تجاوزت الآلاف، جرحى متألمون، ملحمة دموية دفع ثمنها شباب وشيوخ ومراهقين ..عائلتهم ينحون بكاءَ على فقدانهم، كل من بقي وسط حشد المظاهرة اختنق من الدخان، فطرح أرضا على رأسه لكي لا يأتي الدخان على عينه وفمه، نجى الشيخ فتحي وزوبة وحرافيش الفتوة وبعض الشباب الوطني المتحمس من مصير الإنجليز، قبضوا عليهم بتهمة تخريب الممتلكات العامة واتهموا جميعهم بقتل عساكر وضباط إنجليز

احتجز الشيخ فتحي في زنزانة فردية صغيرة، بها جردل ماء للاغتسال، مفرش قطني على الأرض وبه مخدة، استراح من تفكيره لولهة وأغمض عيناه فإذا يسمع صوت خاشع يقرأ القرآن بسكينة وطمأنينة في زنزانة مجاورة ..

إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دي......

دق على الحائط دقة ...

...مين اللي بيدق عليا، نعم ....

الشيخ فتحي: الله يفتح عليك، قراءتك جيدة جدا

...مين معايا ....

الشيخ فتحي: محسوبك الشيخ فتحي الدمنهوري، متظاهر في حادثة طلعت حرب

: وايه الي جابك هنا يا عم الشيخ

الشيخ فتحي: عبرت عن اللي جويا، زهقت من السكوت، ضميري بيأنبني لما بشوف عنطزة الخواجات علينا، بيرموا فتات العيش للفلاحين عشان يلحسوه من الأرض، مبقاش ليا وش في البلد من بعد ما الخواجة تاكي ضرب الفلاحين في المسجد، فقولت لنفسي أبعد يمكن أرتاح من نظرات الناس ليا

:: دلوقتي انت ارتحت لما بعدت عن أهلك وناسك؟

الشيخ فتحي: غصب عني ييني ...مش قادر ألمح طرف عيني في عين حد

كل ما نشأ على باطل فهو باطل، الوحدة الوطنية وتكاتف الشعب للمصلحة العامة هي اللي هتغير نظام الملكية

الشيخ فتحي: وطي صوتك ليسمعوك، انت بتقول ايه؟ ....انت شيوعي ....

أنا إنسان بعبر عن حريتي ورأيي كيفما أشاء وقتما أشاء

الشيخ فتحي: ايه الكلام الماسخ اللي بتقوله ده هتودي نفسك في داهية

:: مين فينا مرحش في داهية من ساعة معاهدة النحاس، كلهم بلا استثناء حطوا راسنا في الوحل

الشيخ فتحي: كلنا يا بني مكسورين ...خايفين من بكرة مخبي لينا ايه وراضيين بحالنا وبندعي ربنا ليل ونهار يمكن حال البلد يتصلح

طول ما فيه فساد وظلم، هينتشر زي الميكروب لحد ما يعدي كل الناس وبعد ما الناس تتعدي تموت بحسرتها

الشيخ فتحي: الاه ...طب احنا بأيدينا ايه نعمله ومعملنهوش، يا بني احنا مش قدهم دول عالم جبابرة، اسمع مني

عشان نستأصل الفساد، لا بد إننا نقطع جذوره نهائيا

الشيخ فتحي: وازاي نقطعه؟

السيطرة على الأحزاب الموالية للإنجليز، تطهير البرلمان والوزارة من العملاء والخونة

الشيخ فتحي: الكلام ده لزملوا تفكير وتخطيط ياما، ربنا يعين خواتنا الفدائيين ...الآه ...يعني بقالنا بنتكلمو كتير ومعرفناش اسمك يا بلدينا

::: محسوبك يوزباشي مطرود من الخدمة، محمد أنور السادات

الشيخ فتحي: مش انتا من المتهمين اللي قتلوا أمين عثمان، صورتك منورة الجرايد

يضحك بابتسامة شاغرة

السادات: هههه حاليا مش متهم، ضيف شرفي

شعور لا إرادي وطني يسري في شريانه، أخيرا تكلمنا بعد هذا

الصمت العابس، ابتسامة خفيفة تعتلي خديه

الشيخ فتحي: ربنا ينصرك على أعدائك، وينولك اللي في بالك

يقطع الشيخ فتحي كلامه فجأة مع المسجون أنور عند فتح باب زنزاته

العسكري: البكباشي عايزك، شهل قوام

يأخذه إلى مكتب البكباشي صلاح ناصر مكبلا بالحديد، يتطلع عبر الممر فيجد محمد زركش يتكلم مع الجنرال جون في أمر هام، ينتظر في مكتب البكباشي حتى أتاه محمد معه ورقة عفو ملكي للشيخ فتحي، لم يعجبه فتحي الأمر، كيف تحررني من شيء كتبه الله لي ؟

باقي السجناء سيحاكمون بالخيانة أو بالسجن دفاعا عن كرامتهم الوطنية، يتعفنون في الزنزانة وأنا أخرج بكل سهولة دون عناء في بذل النفيس والغالي، خذلان ما بعده خذلان،

الشيخ فتحي: ايه الي جابك هنا يا بني؟

محمد زركش: جيت أخرجك قبل ما يحاكموك بجريمة ملكش ذنب فيها

الشيخ فتحي: وهو اللي يطالب بحقه اليومين دول يبقى خاين؟

محمد زركش: انا عارفك كويس يا شيخنا، ملكش في المظاهرات والكلام ده، جرالك ايه؟

الشيخ فتحي: كنت في غيبوبة وفقت منها.

البكباشي: انتا اتكلمت مع المسجون محمد أنور؟

يشتت فتحي انباهه ويستدرك عقله

الشيخ فتحي: محمد أنور مين؟ معرفش حد بالاسم ده

محمد زركش: يلا بينا يا شيخ فتحي ....اهل البلد بيسألوا عليك، نفسهم يسمعوا صوتك وانتا بتأذن تاني، مكانك على المنبر محفوظ

يستعطفه بكلمات انارت طريق قلبه سرور لعودته البلد، اشتاقوا لشيخهم الذي علمهم القرآن في صغرهم، أيقنوا بريقه وعرفوا قيمته عندما رحل عنهم، أقواله الحكيمة ومواعظه تهون عليهم تعب العمل، يستنجدون به في كل شكوى ومصيبة، قسوة عيونهم مثل سهم رشق في قلبه، استجمع إدراكه وخجل من نظراتهم، عاد بعد غياب ثلاثة أسابيع، ينتظرون رؤيته، يقبلون يده ليسامحهم على ما اقترفوه، خطب فيهم .. يا اخواني، صدقوني عاهدت الله انني سأنصر الحق مهما كان الثمن، شاهدتهم يضربون بالسوط في مكان له قدسيته، ولم أتحرك من مكاني ساكنا، خوفا على أهل بيتي، أدركت أنني مذنب لكنني اليوم لا أخشى أحدا سوى الله القادر المهيمن العزيز الجبار

١٩ يناير ١٩٤٧

جنازة مهيبة منظمة لقتلى مظاهرات طلعت حرب، سارت في مقدمة الموكب فرقة موسيقية تصدح نغملت لحن الوداع تليها نعوش يحملها عامة الشعب فوق الأعناق .. يرددون معا نموت، نموت وتحيا مصر ....

الحليف

تذوق ذكي باشا قهوته مباشرة بعدما استنشق دخان سيجارة ملأ رئتيه، حبس أنفاسه لولهة ثم كح كحة وتف بلغم سائل في منديله، تفحص جريدة الأهرام، يقلب صفاحتها عنوان تلو الآخر، توقف عند حدث جلل، رفع حواجبه للأعلى دهشة، وضع كوب القهوة على السفرة ويداه ترتعشان بسرعة، لا يستطيع السيطرة على أعصاب يداه، امتص لعابه الجاف في حلقه

(اغتيال أمين عثمان) حليفه الذي يؤيده في مؤتمراته واجتماعاته، أكبر صديق للإنجليز، صاحب فكرة الزواج الكاثوليكي بين مصر وبريطانيا، ناصر الغرب ضد الفئة المتربصة للمصلحة العامة، عمل تحت يده يخدم معسكرات الإنجليز، تأمين المؤن والأكل والشرب، مقابل مصلحته الشخصية ورفع مكانته في الوزارة بين أقرانه، أمين عثمان تربى في أوروبا تأثر بثقافة الغرب ورونق الأجانب في تعاملتهم المادية، اتضح أنه يكن لهم معروفا في رقبته، لديه إحساس انهم يبنون لا يهدمون، ظلت فكرة الغرب تسيطر عليه لسنوات، أيدهم أمام الجميع دون استثناء، مزيج من شعارات وتراهات لا معنى لها، نال إعجاب السادة، أصبح صوته يعتلي في وجه الأحزاب السياسية الوطنية، الشعب باح عما في صدره واعتلى راية النصر، كشفت الحقيقة أمام أعين محجوبة، خطوات أقدام يستشعرها نحو الباب، ترك الجرائد منغمسا في قهوته

الساخنة

شريف: صباح الخير

كسر الصمت لولهة، أكلت الهرة لسانه، يتخيل نفسه مشنوقا في قصر عابدين

ذكي: هوا اللي يصطبح بالجرايد دي يشوف خير؟

شريف: مزاجك متعكر ليه؟

ذكي: مصيبة عمت ...على الكل

شريف: وغوغشتني

ذكي: أمين عثمان قتلوه

شريف: عرفوا مين اللي قتلوا؟

ذكي: مش مهم مين ... احنا في حرب مع المتطرفين

شريف: تفتكر الشعب هيسكت؟

ذكي: مظنش ... خليك متأكد احنا والإنجليز مصلحتنا واحدة، من غيرهم منسواش حاجة

شريف: العين علينا كبيرة اليومين دول

ذكي: حاجة زي الكارثة اللي حصلت، أدت فرصة لشوية رعاع

إنهم يحاسبوا أسيادهم

شريف: هتعمل ايه في الانتخابات؟

ذكي: قرارات الوزارة ممكن تتغير في لحظة، تأييد أعضاء البرلمان والمجلس مبقاش في صالحنا، موت أمين عثمان غير حساباتي كلها، شايف إننا نعدي اليومين دول من غير شوشرة ...كفاية اللي حصل لحد كده

شريف: و شغلنا في إسكندرية، البضاعة في المخزن ريحتها فاحت

ذكي: شوف طريقة صرف بيها باقي البضاعة قبل ما تشح، التجار مش هيسكتوا عن فلوسهم المرمية في الأرض

ضاعف ذكي عدد حراسته الشخصية، كلاب ولف خلف أسوار القصر، رجال مدججين بالسلاح ليلا ونهارا، همهمات في عقله، لا يكف عن استدعاء صورة صديقه أمين عثمان الذي تقاسم معه الخبز في بيته، وكيف كانت نهايته المشؤومة، تساؤلات يطرحها على نفسه، كيف سينتهي بي المآل؟ لا يكاد يصدق اسطورته التي اختفت وتقوضت، تجارة الكوكايين عانت كسادا اقتصاديا في هذه الفترة الوجيزة، بسبب سوء أحوال البلاد وهياج الروح الوطنية، تمرد طوائف الشعب على كلاب الإنجليز، اكتسب الشعب ثقة زائدة بعد محاولات اغتيال الخونة، شيء ما دفعهم لرفع يدهم عاليا دون تردد أو خوف، تصفية حساباته مع أعدائه وشيكة دون أدنى شك،



١٩٤٦

تخرج يوسف زركش من المدرسة السعدية - قرية بندف وحصل على الشهادة الثانوية بتقدير عالي، يتمنى أن يصبح ظابط في الجيش يخدم وطنه رغم مجموعه الكبير قد يلتحق بمدرسة الطب أو الهندسة، لكن ابيه رفض تقديمه من اول لحظة خوفا عليه من صراعات وويلات الحرب، مما دفعه للالتحاق بمدرسة الطب في القصر العيني، تعلم على يد أساتذته علوم الطب ... درس الطب بكافه أنواعه ومناهجه التعليمية، رسخ محمد في ابنه رسالة سامية يساعد بها الناس البسطاء الذين لا يقدرون على دفع شيء من المال، أنشأ أبيه له عيادة في البلد ...حكيم الغلابة بن زركش باشا ...يوم بعد يوم استحسن قبول الناس له وزادت شعبيته، يعالج البسطاء دون عناء أو تكلفة مادية كبيرة، رغم أنه طالب لديه معلومات وخبرة اكتسبها من أستاذه في علم التشريح القصر العيني، كلارك بيتون، علمه التشريح بالمشرط لإزالة أي شيء فاسد من الجلد واقتلاع الجذور السرطانية، كوي الجرح الملتهب المقطوع، طب الأعشاب اكتسبه من عم سيف اليزل العطار، رجل شاحب الوجه تتدلى خديه أسفل، لحيته بيضاء خالية من سواد الشعر، يلقبه اهل الحر (البركة) نظرا حنكته وافقه الواسع الممتد، أعطاه الله علما يفوق أي حكيم ..يداوي جرحهم بخلطات عشبية تعلمها على يد أبيه .. البردقوش والمليسة

وغذاء ملكات النحل؛ إذا سمعت بالفوائد العظيمة لتلك المواد في تحسين النفسية والاسترخاء وتأخير الشيخوخة، كذلك تواجد شاب عشريني يسأل العطار عن خلطة لعلاج الثعلبة فيقوم العطار بإعداد الوصفة التي تعالج مرض الثعلبة.

وتعد العطارة ملاذا للكثيرين من المواطنين الذين يأسوا من العلاج بالأدوية أو لا يرغبون بإدخال المواد الكيماوية إلى أجسادهم.

ولا يقتصر زبائن محال العطارة على الفقراء أو محدودي الدخل بل أصبحت تكسب شعبية واسعة لدى الأغنياء أيضا.

واصطفت سيارة بالشارع المقابل لمحل العطارة لتنزل منها سيدة ثلاثينية يتضح من هيئتها انتماءها للطبقة فوق المتوسطة، لتسأل العطار عن خلطة لتطويل الشعر؛ وإذا بالعطار يتجه إلى إحدى أزقة المحل ويتناول من أحد الرفوف عبوة من الزيت يدعى "زيت الحية" ليعطيها للزبونة بعد إخبارها بكيفية الاستخدام

علم لا ينتهي معارفه وأقسامه .. علمه أبيه أن كل سعي في حياته لخدمة إنسان سينال الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة ... حينما جاء عم إبراهيم يده مشروخة مشققة متربة ملوثة جافة كالصبار من كثرة عمله الشاق، لا يستطيع أن يزول ألمها بسهولة، كلما وضع الماء يتخلل في تصدعات الجلد ويبرز أسفله، وضع يداه في ماء خل ورد ولفهما بشاش قطني تعقيما من التلوث، نصحه برش

كالونيا عليها لكي لا تسبب تلوثا ليده

الوحدة الصحية أصبحت عبئا ثقيلا، حالات تستمر بالذهاب والأجهزة غير مؤهلة للقيام بالعمليات الجراحية، اقفل بسبب اكتظاظ الفلاحين وتدهور الحالات الصحية بسبب نقل عدوى الكوليرا ... الذي يريد المعالجة يسافر إلى القاهرة بحثا عن حكيم

حتى امتد الأمل بهم وسمعوا بعيادة يوسف زركش، لم يتوانى عن العمل في إجازة نهاية الأسبوع، أعداد غفيرة أمام عيادته الصغيرة، جبريل فلاح بسيط قطعت ساقيه غفوة على يد دوكار متسرع، دهوس الحصان على وجهه، لقنه ضربة أرسلته في غيبوبة مؤقته، عجلات عربة الدوكار داست على ركبتيه الاثنتين، فصاح من غيبوبته مفزوعا صارخا متوجعا من الألم الشديد، فصلت ركبيتيه عن فخذيه وعصا قدميه، خلع عظمي التهاب شديد واحمرار حولها، تجمع أهالي البلد ونقلوه للعيادة ... وضع قماشة في فمه لكي لا يعلو صارخا، كبله الأهالي بأيديهم من جهتين، أعطاه حقنة مخدر تخفف من روعه ... أراد إرجاع العظام لمكانها عن طريق شدها لأعلى بقوه ..التقط أنفاسه وأمسك برجله اليمنى وشدها نحو الركبة ...والأخرى كذلك، لفها بشاش قطني، دخل الحمام نزل الروع وهدأ كليا، صفع وجهه بالماء وبلل أصابعه ... تألم من قسوة قلبه وذرفت دموعه حزنا على ما يعانيه البعض، عدوى الكوليرا انتشرت في البلدة ،، يجب استئصاله قبل خضوع الجسم

للعدوى البكتيرية، توقف الفلاحيين عن العمل بسبب المرض الخبيث، الأجزخانة فارغة من المضادات الحيوية وبعض الأدوية النادرة، كتب يوسف تلغراف لوزارة الصحة بإحضار حكيم للوحدة الصحية، واضافة شحنات من دواء البنسلين

الليثيوم ....الخ

خرج من عيادته تاركا المرضى في حالة مزرية

التمرجي: رايح فين يا دوكتر ....لسه فيه عيانين ياماا

يوسف: خمس دقايق وراجع

التفت إلى السلم ونزل بالمصعد، للشارع المجاور لصندوق البريد

مسح لعابه اللزج على أطراف الظرف وأتقن إحكامه ووضعه في ثقبه المستطيل.

سمير العجلاتي يكن معروفا له، عندما رآه استشعر بالخلاص والامل من المحنه، فهو بالنسبة له ولأهالي القرية بطل يحتذى به ... سمير العجلاتي عنتيل زمانه، يؤمن بمقولة الدهن في العتاقي قاهر النساء في شبابه جذب فتيات الحي بوسامته وتزوج سبعة نسوة وطلق اثنتين، يعيش من أجل تفريغ شهوته، يعتليه حب النساء، كلما كبر وترعرع تزوج شابة مراهقة، يظن نفسه خارق لطبيعة لنفسه، تساقط شعره من الكمياوي، جسده كهل وتعظم،

ضعفت قدرته الكامنة المحتبسة داخله، مفعم بروح الشباب، يؤمن بقدراته رغم ضعفه أمام نسوته، صوته العالي دليل على موقفه وفي الفراش جثة هامدة لا تتحرك.

سمير: إلا ما يلزمكش خدمة يا دكترة

عيناه حمراء تظهران تعب العمل، يضع يده وراء ظهره متوجع من ألم فقراته ...أه ...اه

سمير: ربنا يكون في عونك، مش عارف بس أهالي البلد هيعملوا ايه من غيرك؟

يوسف: متقولش كده ...انتوا اهلي وناسي.

سمير: متأخذنيش يا سي يوسف ...عارف إن ده مش وقته

يقول كلماته الأخيرة مترددا في طلب معنوي.

يوسف: مالك ...قول اللي انت عاوزه سامعك

سمير: الولية سايبه البيت بقالها يومين ومش عارف أرضيها عشان اللازي منوو

أمسك ضحك قلبه ونغزاته، وابتسم بخفة يكتم ضحكة من داخله

يوسف: وايه اللازي منوو

سمير: إني كبرت في السن وصحتي مش حملها، المعلوم اللي

بتستقوى بيه انزاح.

يوسف: عشان تتعلم بعد كده ما تتجوزش عيلة من دور بناتك

خجل واحمرت وجنتيه.

سمير: الأجزخانة من ساعة ما قفلت والحال اتدهور أوي

يوسف: بكره تفتح وربنا ينولك اللي بالك.

سمير: مش القصد، بس الواحد من جواه مقهور، شوفلي بالله عليك أي حاجة تخليني أرجع للذي مضى من شبابي.

يوسف: غالي والطلب رخيص، عدي على عم سيف خليه يديك حبة البركة.

سمير: روح إلهي يعمر بيتك

عودة صفية هانم الحامولي

المحروسة تصل إلى ميناء الإسكندرية قادمة من روما، صفية هانم وبنتها لينا تستقل ترماي ثم اتومبيل ثم دوكار إلى قصر ذكي باشا تطأ أقدامها إلى بوابة القصر ومعها الخدم حاملين على أكتافهم حقائبها وأغراضها، تمشي متفاخرة بتنورتها المزركشة بخطوط طولية وقميصها المزركش ذو الأزار الذهبية محاوطة على رقبتها عقد ألماظ أبيض يشتد بريقه في الشمس تضبط قبعتها الدائرية ...

يقبل يدها شريف ترحيبا لها ..شرفتي قصرك ماماه..... يحضن أخته لينا حضنا دافئا.

صفية: ميرسي حبيبي، أي ميس يو

شريف: شكرا ماماه

يأتي ذكي مقبلا يدها ... أهلا بيكي في قصرنا المتواضع ... يقبل لينا على خدها الأيمن.

تحوم بنظرها على صورة أبيها المعلقة فوق حائط الممر الشرقي أين هي؟

تثور مفتقدة لجزء من روحها في القصر.

صفية: مين شال صورة باباه من هنا؟

يسكن الصمت، يلوح بيده آمرا.

ذكي: هاتوا الصورة من السرداب وعلقوها

يأتون بصورة ابيها نجيب باشا فإذا هي متآكلة غير واضحة الملامح شنبه مقصوص وطربوشه مائل للون الأصفر، الجرذان تبولت عليها وأطعمتها لصغارهم، البرواز النحاسي صدأ من عفرة السنين، ورائحة البراز اختلط بالورق فاصبح هشيما.

نظرت إليه في حالة صدمة، بالنسبة إليها منظر بشع وقح ..كيف لأبي الذي كان يهابه الجميع يوضع في سرداب تملأه الجرذان وتأكل من لحمه؟ كيف سنحت له فرصة عدم وجودي في القصر ليقوم بفعلته الشنيعة؟ يظن أنه حينما مات سيملك قصره وممتلكاته الجمل بما حمل دون محاسبة ...هرعت إلى غرفة نومها غاضبة ولم تلقِ اهتماما لأحد.

عاتب الخدم دون أن يعطوه خبرا بقدوم سيدتهم.

ذكي: مش تدوني خبر الأول قبل ما الهانم تيجي؟

أنس: احنا اتفاجئنا يا باشا زينا زيك ...لقنيها على الباب

ذكي: خلوا عينكم على الهانم.

يأمرهم بالانصراف، يفكر في إيجاد كذبة يقنع بها زوجته التي جاءت تقلب الأحداث رأسا على عقب، يعلم جيدا أنها إن

فضحت بفعلته لأخيها أنور صديقه وعشرة عمره وعضو في البرلمان، سيضيق الخناق عليه وسيتهمونه بالنذالة والخداع، مصالحه مع أخيها ستتضارب.

لجأ إلى الود ولين المعاملة لاكتساب ثقتها به، تعلم جيدا أنه أفعى يتصبغ ألوانا متعددة وأوجه مختلفة حسب موقفه، يطرق باب غرفتها واضعا كالونيا على رقبته وفي سترته خاتم قرمزي يتوسطه جوهرة نادرة من مناجم الذهب في أسوان.

صفية: ليك عين تيجي بعد اللي عملته؟

ذكي: وزة شيطان وراحة لحالها.

صفية: تعض الايد اللي اتمدت ليك في عز ما كنت حتة مستشار صغير عند باباه؟

نفر من تلقيح كلامها المسموم.

ذكي: ومتنسيش المستشار ده ابن مين ومين عيلة مين ...مش جاي عشان أفكرك بأصلي.

جاي عشان أصالحك.

تضع رجلها على فخذيها استكبارا.

صفية: هتجيب معاك ايه المرة دي ...اوعى تقولي دهب، ألماظ، عربية.

يظهر من سترته علبة ملفوفة برباط ... اتفضلي ماي ليدي ....

تمسكها بغرور غير راغبة بالهدايا التي اعتادت عليها

تفتح العلبة، عيناها تتلألأ من شدة وميض القرمزي، تكاد لا تصدق ما تراه شيء ما يجذب عيناها اللمعان توهج كنبراس أضاء قلبها، أطار الخاتم بخطوط عثمانية مطلي بالذهب متقنة الصنع، يأخذ العين في غفلة ويرغمها على التمسك به.

صفية: هديتك مقبولة.

ذكي: هكون ممتن ليكي لو محكتيش لأخوكي على اللي حصل النهاردة

صفية: اوكيه ..سبني شوية مع الخاتم لوحدينا

يهز رأسه وداعا لها، في قرارة نفسه يتمنى أن يقطع ذيلها المتدلي، تركتني ثلاثة شهور معزول من أجل إحياء سهراتها في روما ....تبا للعشرة المبنية على الدياثة.

حين يموت أخاكي سألقنك درسا لن تنسيه في المعاشرة الزوجية، سأمحو اسم عائلتك من تاريخ أسلافك، أوشك صبري على النفاذ من أفعالك الوقحة ... يكن لها ضغينة غير متناهية متواصلة في حلقات مثقوبة، إشاعة حب وقعت عليها منذ بضعة شهور مع عشيق فرنساوي من أصول عربية أعطاها قبلة الحياة في السر

...الخادمة راقبت قبلتها عن كثب ونشرت الخبر كالذباب في أنحاء القصر بعد أيام الخبر أصبح فضيحة تتردد في ألسنة السادة .. الصبر نفذ.

أنكرت الإشاعة .. المظهر العام قد تدنى لمستوى منحط، أفواه الناس تتكلم طوال النهار والليل .. الألسنة كثيرة يصعب قطعها مثل الإبل، نظرات العار تلاحقه في بقاع عمله السادة لا يردون عليه تحية السلام أمر زوجته المغادرة إلى أي مكان لعل النسيان يشفع لها من خطيئتها ...سافرت ثلاثة أشهر فقط عادت دون مبالاة للواقع الذي تعيشه، تتصرف بطبيعتها كأن شيء لم يحدث إطلاقا طابع الغرب سيطر عليها، غير مؤمنة بالعادات، مستنكرة الأعراف ترى الدنيا بعين واحدة كأن كل شيء في الكون خلق لها وحسب، تعيش من أجل رفاهية في كازينو، كاس وسيجارة في بار. أبيها نجيب بك الحامولي كان قاضيا في محكمة ....ومستشار علي ماهر الأسبق .. جمع ثروة طائلة من الرشاوي والإكراميات من الحكومة الإنجليزية التي كانت تستغله في المناصب العليا، يقضي لهم أوراق، مستندات وما شابه ذلك .. ذراعه الأيمن ذكي الخديوي، يعتبره ابنه البكر الذي لم يولده، يراعي مصالحه، يهتم بشؤونه المالية، كان محل ثقة عمياء بالنسبة له ...حين تخرجت صفية من المدرسة أجبرها على الزواج من ذكي نظرا لشأنه بين صفوة المجتمع، كما يعد فرد من الأسرة العلوية .. من ناحية أخرى أصرت عائلته على هذا الزواج ... توفى بسكتة قلبية، ترك

ثروته نصف ثروته لذكي والنصف الآخر لابنه مما أدى إلى حدوث فجوة بين صفية وذكي.

يراودها شعور الكراهية، تندم كل يوم على كلمة (باباه)، ترطم رأسها بالحائط لعلها تنسى الألم الداخلي الذي تسبب به، كراهيتها أعمت قلبها، وصل لمرحلة احتقار زوجها الذي أخذ ميراث دون وجه حق طاح أبيها من نظرة عينها، تسعى للوصول إلى حقها الشرعي مهما كلف الأمر شيئا كهذا دمر نفسيتها، حبها المكنون أصبح كراهية لا تخشى شيء.

برندة العمدة

الأشجار، الحشائش، زهور الأوركيد تطل على حديقة المنزل ويفضل الأفراد قضاء الأمسيات فيها لتناول الشاي والكعك ... تحت مظلة القش عمودان مثبتان في الأرض، حصيرة يجلس عليها أبناء الطبقة الكادحة، أريكة الصفوة يجلسون عليها كبار البلد، في المنتصف يجلس العمدة عبد الرازق شحاته ....خادم ولي نعمته، يمسح قاذورات وبقايا ضحايا الإنجليز، لديه جواسيس في كل أنحاء البلد ..يعرف كل كبيرة وصغيرة ..مهما كانت المعلومة هينة ثمنها أغلى عند الإنجليز .. في الآونة الأخيرة حدث تمرد عام للفلاحين المهمشين الذين لم يسمحوا ببيع شبر واحد من أرض آبائهم وأجدادهم ..بعدما ابتلع الباشوات كل الأراضي المجاورة لم يتبقى إلا ربعهم، الإغراءات المادية لا تستجيب معهم ... اعتقادهم أن الأرض شرف. وأخذ الشرف يقلل من كرامتهم ..

دلف مجموعة من الفلاحين إلى البرندة بناء على طلب العمدة

خير يا حضرة العمدة؟

يشاور إلى شحمتيه تنبيها ...

:: هقولكم كلمتين حطوها حلقة في ودانكم، شوف بقى منك ليه .. المعاون بعت جواب.

معاكم مهلة أسبوع تفكروا وتقبضوا القرشين وإلا انتوا عارفين ايه

اللي هيحصل.

...طفح الكيل ...

هيحصل ايه اكتر من اللي حصل؟

:: الكلمة تتقال مرة واحدة ... بيع الأرض برضاك أحسن ما تبيعها غصب عنك.

استعطفه بكلمات خالصة من نابع قلبه ..

:: يا عمدة انتا خابر الأرض دي لعيالنا، من غيرها نسلنا مبتور

:: من قال كديه ... بعدبن انتوا هتاخدوا شيء وشويات وهتنلوا رضا الباشوات.

دلف الشيخ فتحي فجأة الاجتماع مقاطعا له.

:: ورضا ربنا فين يا حضرة العمدة؟ عايز الناس تفرط في الأرض اللي حليتها؟

العمدة: خليك بعيد، دورك معايا لسه مجاش

:: طول ما فيا نفس، هتكلم وأقول الحق.

يقترب الغفير من أذن الشيخ فتحي همسا في أذنه... امشي يا شيخ بدل ما تروح النقطة.

يظل الشيخ واقفا شامخا في وجه العمدة عين بعين .. يضحك العمدة مستهزئا به أمام كلماته غير مهتم.

العمدة: انت طلعت ازاي يا شيخ فتحي من السجن؟ سمعت إنك اتمسكت في مظاهرة، الباقي اتحكم عليه وانت طلعت زي الشعرة من العجينة.

زفر :: محمد باشا ربنا يعلي قدره خرجني.

يداعب شاربه متفاخرا به ... يود الانقضاض عليه.

العمدة: الحقيقة اللي متعرفهاش محمد باشا خرجك بعفو ملكي

تتغير تعبيرات وجهه، يداه مرتجفتان، نغزة يأس تستكين قلبه.

استغرب .. حدث ولم يخبرني، صافح الشيطان بذات نفسه، كنت أظن أنني خرجت عن حق، ليتني بقيت في السجن أتعفن، أجوع ولا أسمع هذا... يكن لي معروفا.

مصطنع من شخص بغيض يكرهه الناس، دين في رقبتي لا يستحق الثناء، بادت على وجهه تعبيرات مختلفة، خذوله أمام نفسه وسط الجميع، شتت أفكاره، لا يرى ردا منافيا.

ترك الجلسة بعدما كتم غيظه محدقا في عينيه، منحنيا رقبته خاشيا من ردة فعل أهل البلد الذين وثقوا به يتهامسون بين بعضهم اللي تحسبه موسى طلع فرعون حتى الشيخ فتحي

اشتروه .... خدعنا السنين دي كلتها .... مش مصدق نفسي ...

زاح الهم ورسم ابتسامة خبيثة حول فمه .. كل ما أراده تشويه صورته الطيبة الخالصة أمام أعين الخلق شيخهم الذي ظل سنوات في القرية يعلمهم القرآن، قدوتهم الذين يحتذون به باعهم في أخر لحظة، ذاق طعم الانتصار على عدوه اللدود ... ثقوب سوداء غرزت قلبه أكان يعلم الأولاد في الكتاب، شعبية محبوبة، صدى عالي على المنبر، كلماته المؤثرة أوشكت على العصيان والتمرد، تذكر منذ خمس عشر سنة عرض عليه صمته مقابل مادي كبير وقطعة أرض رفض العرض المقدم. اتخذ المنبر صوتا للحق وسبيل للموعظة .. يعلمهم دينهم ... لا فرق بين أعجمي ولا عربي إلا بالتقوى .... يعرفهم حقيقة أنفسهم .. الاستعباد ظاهرة قديمة الأزل .. اليونانية – الرومانية – الجاهلية ...الخ الاستعمار أعاد هذه الظاهرة سلبا للحقوق، الوجبات، الشرف . العزة ...الخ من ناحية أخرى يواجه شيخ المنصر الذي يطعن في خطبه، دروسه، لسانه لا يكف عن النميمة والغيبة، يتمنى أن ينال صداه المتسع في أنحاء القرية، غيرته تمكنت من قول الزور في حقه عندما كان يداوي امرأة مريضة سقطت عند بيته اتهمه بالزنا على مرأى الناس وثبتت براءته حينما رآه شاب صغير يافع يلتقط بعض الأعشاب من العطارة.

الموت الأسود

الوباء التاسع كان عام ١٩٠٢م والذي ضرب قرية موشا بأسيوط، وكان بسبب قيام العمدة بالتستر علي المرض من خلال القادمين من مكة المكرمة، حيث انتشر بعدها للقاهرة من خلال امرأة كانت قادمة من موشا وأدى الوباء لموت ٣٤ ألفًا و٥٩٥ مواطنًا، وبلغ عدد القرى والنجوع التي زارها الوباء عدد ٢٠٢٦، وقد سجل أمير الشعرء أحمد شوقي وباء موشا في إحدى قصائده "فالموت عند ظلال موشا رائع كالموت في ظل القنا الخطار"، وقد انتهى وباء موشا عام ١٩٠٢م ليختفي ويعاود الظهور مرة عام ١٩٤٧م.

أوراق مبعثرة، محاليل مسكوبة جزيئا، بقع دماء تاركة أثر على المفارش البيضاء، حقن وريدية تمتلئ سلة المهملات، قهوة باردة أعدت منذ بضع ساعات، نوم عميق يصاحبه شخير حائط خشبي يتوسطه دقة عقرب الساعة تك ..تك ..تك ..، بالطوا مكرمش ملوث بالدماء مثني على الكرسي ...خبط الباب ثلاث مرات متتالية كافية لإيقاظه من سبات نومه العميق.

التمرجي: حالة مستعجلة.

يوسف: الأعراض.

غثيان، سخونية، وجع معدة.

تأتي عيناه على ورقة تحليلية تحت درج مكتبه ...١٨٨٣ .. دمياط .. هول الوباء أصبح وشيكا لا محالة، يا للكارثة ...

ارتدى السترة، ربط زر بنطاله، حمل حذاءه ومشى إلى السلم حافي القدمين مسرعا.

ترعة أبو عوض – بندف

أهالي البلد يصطفون حول المريض، جسده رخو، تفوح منه رائحة البراز، تشنجات معدية، تقيؤ معوي حاد مستمر، يلتقط أنفاسه بصعوبة، جفاف حلقي شديد وضع يديه الاثنتين على رقبته محاولا التنفس اقترب يوسف محاولا التصدي للأهالي منعا لانتشار العدوى بينهم .... كوليرا.

كوليرا ....كوليرا

هلعوا مفزوعين متفرقين في الأرجاء خوفا من الوباء .. ينظرون إلى شخص تنتهي حياته يتدحرج على الأرض ممسكا أمعاءه غير قادر على الحركة ... لف قماشة حول فمه وأنفه.

وضع أذنه متحسسا دقات قلبه، توقف قلبه فجأة، غمضت جفناه، المناعة وهنت، شاخت.

أمسك بحجر وضرب قلبه آملا في عودة روحه إلى جسده المفترق، كرر ضربته خمسة مرات متتالية استشعر قبض روحه المسكونة داخله، ذرف دمعة يأس لا إراديا ... ينظر للسماء الصافية خالية من الشوائب داعيا له بالرحمة والمغفرة، وقف على قدماه لمم شتات نفسه، مشى خطوات قريبة بين أهالي القرية ...انتزع لفافة القماشة من على فمه.

نواح زوجة المتوفي واضعة الرمال فوق رأسها غارقة في بكائها ....وهدان ..وهدان.

لم تدرك رؤيته قبل موته بثواني، تريد احتضانه قبل وداعه الأخير غير منصتة للأهالي ... ارجعي ... ارجعي ... اتجننتي .... يلتحق بها يوسف حاجزا أمامها.

:: رايحة فين؟

:: جوزي، عايزه ... أشوفه.

:: جوزك مصاب كوليرا.

تدلك عيناها المنهمرة، تحت جفنها سواد ..

تتركه هاربة إلى مكان الجثة، أمسك يدها اليمنى حزما.

:: انتي عارفه يعني ايه كوليرا؟ لو مش خايفة على نفسك، خافي على عيالك اللي هيتمرمطوا من بعدك.

كلمات أعادت النظر حولها متذكرة أبنائها الصغار، غير مالكين قوت يومهم، من ناحية أخرى غير قادرة على تماسك نفسها .. خفقان قلبها يشتد في لحظة ...

:: وهدان فارقني من غير ما يودعني، راح فطيس.

:: غمه وهتزول.

حاولت الحكومة الاستعداد والتصدي للمرض، فقامت الشرطة والجيش بمحاصرة القرية ومنع الدخول أو الخروج منها، بالإضافة إلى عزل المصابين والتحفظ على متعلقاتهم الشخصية، وزيادة ضخ مادة الكلور في المياه (كان يعتقد أنها تطهر وتقتل البكتريا)، صدرت قوانين منع الاستحمام أو غسل الملابس في الترع نهائيا، إزالة وسائل الشرب العامة (كان ينتشر الزير والقلل الفخار كوسيلة لشرب الماء المجانية في هذا الوقت)، منع تحضير الأطعمة في الأسواق، منع بيع الخضار إلا بعد غسله بالكلور ...

همسة عتاب

استضاف محمد باشا زركش شيخه في الصالون ... أعدت الخادمة كوبين شاي ووضعتهم على الطاولة، جلس محمد، التقط كوبه ثم نظر إلى شيخه ما زال واقفا متكأ على عصاه ... تعبيرات وجهه لا توحي بالخير .. كل ما يريد معرفته الحقيقة التي أخفاها عنه.

محمد: اتفضل يا شيخنا.

:: جاي أقولك كلمتين، وهمشي من البلد.

يضع كوبه مندهشا من ردة فعله.

زفر :: ليه طلعتني من اللومان؟

محمد: مش هاين عليا أشوفك متمرمط

:: حطيت ايدك في ايد خراب البيوت؟

:: قصدك ايه يا شيخ فتحي؟

:: ذكي الخديوي.

:: الي فات مات ...ايه اللي فكرك ..عدى عليه ياما

:: الي فات ممتش ولا هيموت ودم حمزة في رقبتك

ينطق كلماته تعتريه نظرة فشل، إحباط، يأس.

زفر :: عايزني أتصرف ازاي ...خسرت، أختي، أمي، زوجتي مش مستعد أخسر فلذة كبدي وأخسر الناس اللي بحبهم.

:: ربيتك زي ابني، علمتك إنك تقول الحق مهما كان التمن، هسيبك لنفسك يمكن تعود لرشدك.

مشى خطوات إلى الباب.

:: تسبني بعد السنين دي؟ مين اللي هاخد مشورته؟

:: شاور عقلك.

عاد إليه كابوسه الخفي ... لحظة توسل عم حمزة إليه، نبرة صوته منخفضة، ذبلان دموعه، غارق في بحر الذكريات المؤلمة، غير مرتاح على الوسادة كابوس الفزاعة، تخيف الطيور المهاجرة الباحثة عن المأوى ..لا يمل من وقوفه ليلا ونهارا .. ضيق الخناق عليه ..

اللواط

محاولات باءت بالفشل، في إقناع شريف بالزواج من أميرة ذات حسب ونسب تتناسب مع مقومات العائلة، تفكيره أصبح عقيماحقيقة كوني ذكراً « ابتُلي بمرض الانجذاب للذكور»، اختبرتُ عواقب فشلي في أداء ذكورتي الاجتماعية. راكمتُ عدداً من الأخطاء الفادحة بين السابعة والعاشرة حولتني بسرعة خاطفة من طفل خجول في عيون الناس، إلى ولد يشوب غرابته شيء من... الخنوثة والجلوس مع الفتيات والصبية الخجولين الضعفاء في باحة مدرستي الابتدائية المختلطة بدلاً من الركض مع الصبية الأشقياء الأقوياء ولاحقتني بعد ذلك بشكل متصل أحياناً ومتقطع أحياناً أخرى كلمات مثل «طنط»، «فوفو»، «مخنّث»، أكتبها هنا فأشعر من جديد كأنها وشومٌ طُبعت على جلدي بحديد ملتهب، وأدركُ وأنا أقترب من الأربعين أني لا زلتُ أشعر - رغماً عني - بعار تلك اللحظة، عار أن يكون المرء مخنث ...انفصل عقلي الواعي عن طبيعتي العفوية ... في الليل لا أتذوق طعم النوم، هاجس الجنس راودني عن نفسي ...استسلمت له غصبا وكرها ..نظرة واحدة من شاب أشقر تكفي لإخماد حريق شهوتي ... السر أصبح عبئا ثقيلا على كاهلي ... كل يوم أخترع كذبة جديدة ..ضاجعت الكثير من الصبيان حليقي الذقن، حتى نلت شريك حياتي باولو ... ضابط إنجليزي، تعرفت عليه في كازينو، لاحظت عليه ميوله، مسح قبلة أحمر شفاه بمنديله .. جلس وحيدا على طاولته، لا يريد مصاحبة الفتيات المثيرات ذات النهود بارزة مؤخرتهم ... راقبته جيدا ...غمز لي إعجابا بي .. تبادلنا الحوار ..

انشغلنا في صب البيرة ...

الساعة الواحدة ليلا :

زار باولو صديقه شريف في سرداب القصر متخفيا وراء الشجر التقط حجر...ورماه بعيدا مصدرا صوت ... اتجه كل منهما إلى مكان صدور الصوت ... وجد فرصة متخطي حارسان من البوابة الأمامية، ترقب إغلاق النوافذ – الإنارة – يلتفت حول نفسه ...

... نزل إلى سلم السرداب في الجهة المقابلة للحديقة

تحدث معه بالإنجليزية

شريف: لماذا تأخرت؟ قلقلت عليك.

عانقه وقبله على خديه.

باولوا: مأمورية عاجلة.

شريف: لقد غبت كثيرا هذه الفترة؟ هل هناك أحد يشغل بالك غيري؟

باولوا: حتما لا

عض شفتيه مستثير ... غير قادر على حبس أنفاسه

شريف: هيا اخلع بنطالك

صديق العمر

بوسطجي يرسل جواب تحت عقد باب العيادة، صباح اليوم

صديقي العزيز يوسف ... أحمل لك امتناني وإخلاصي لك، مرت سنوات طويلة ولم نلتق حتى يومنا هذا، كنت تشطارني فرحي وحزني، عاهدنا بعضنا ألا نفترق أبدا عن بعض مهما كانت العواقب، بهية الشقراء تتذكرها، أجمل جسد في المدرسة ...كنا نحبها سويا.

ذات يوم أهديت لها وردة حمراء تعبيرا لها عن حبي، قبلتني في خدي الأيمن وأرى عيناك تفعمان غضبا ..تشاجرنا لأول مرة، اختلفنا في أمور كثيرة لكن بعد هذه اللحظة افترقنا كل منا وجد طريقه ... تركتني عاشقا لها وذهبت لشخص آخر من النبلاء ...شعرت حينها ندما حين خسرت أعز صديق لدي ... ليتنا نعود للأيام الخوالي، أتذكر؟ وضعت في كوب عسكري إنجليزي نشارة خشب ... عيناي دمعت من الضحك حين أمسك بطنه وعال بالصراخ كالطفل الرضيع ... هيلب ...هيلب، نفرغ ثقب في إطار المركبات، فوق السطوح نرمي عليهم الحجارة ثم نستمر بالركض خلف الأبنية المجاورة، أشقياء لا يهابون شيء.

كلام كثير أود أن أقوله لك ... القاهرة - الموسيكي - مقهى القزاز

في انتظارك ما دمت حيا

صديقك الوفي: خليل عبد ربو

أين كنت طوال هذه الفترة؟ لماذا تذكرتني بعد هذه السنين؟ أسئلة كثيرة يريد إجاباتها من صديقه خليل الذي طردت عائلته من القرية. أبيه عبد ربو فلاح نزيه عرف عنه تحيزه للضعفاء، ناصر الفلاحين الذين سلبت أرضهم، حقوقهم، كرامتهم ...كان يعتبر أن ذاك صوت له قيمته وسط المهمشين ... أصدر الإنجليز قرار بنفيه من القرية طبقا لأوامر ذكي باشا التي تضاربت مصالحه، تمرد عن العمل، قلة الإنتاج، طلب زيادة المرتبات.

تم نفيه هو وأسرته، وإن عاد للقرية سيحكم عليه بالإعدام شنقا ... سافر إلى القاهرة حي السيدة زينب، قطع رزقه فجأة وأمامه عائلة مسئول عنها، توجه إلى ميدان رمسيس في تلميع أحذية الباشوات، ٥ قروش يوميا لا تكفي في سداد احتياجات الأسرة، كان هذا كفيلا لمعاونة خليل أبيه على العمل، باع الجرائد في أحد أزقة حي السيدة زينب، رحلة كفاح مريرة.

.. يوفر مصروفه لشراء مستلزمات الدراسة .. كشكول ..قلم ..حقيبة

الباقي يشتري به خبزا رقيق قرش واحد، يقسمه إلى أربعة أرباع ... يكفيه يوم واحد والربع الباقي تناوله أخيه الصغير ... تم منحه

المجانية نظرا لتفوقه الدراسي، حين تقدم لاختبار الهيئة - الكلية الحربية، سخر منه أولاد الباشوات .. ضحكات سخرية واستهزاء ..أبوه مش قادر يجيب ليه جزمة يلبسها في رجله هههه... جزمته سوداء بها شقوق طفيفة على الأطراف، قميصه الأبيض غير متناسق مع طوله، بنطاله حجمه متسع ...فاكر نفسه في العزبة ... همس احد أبناء الباشوات المتقدمين في أذنه في نظرة احتقار ... تفتكر ممكن يقبلوك بمنظرك ده؟

:: الراجل مش بلبسه.

:: اومال بايه؟

:: تربيته.

:: شكلك كده عايز تتربى، انت عارف انا ابن مين؟

:: كلنا ولاد تسعة.

:: تجننت، تقارن نفسك بيا

قام العسكري بمناداة رقم القيد محشرج صوته، استعداد للدخول ... قيد ٥٥...

دلف إلى قاعة الهيئة ... اهتز نبضه، شتت عقله من الكلام المسموم، لحظة خوف ويأس، أخذ شهيق وكتم أنفاسه، يحاول تفريغ عقله من الإحباط، في كتفه عائلة التي وثقت به.

... واجه خوفه بإرادة، داعيا إنجازاته ...منحه المجانية في المرحلة الإعدادية، تفوقه في المرحلة الثانوية بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، منحه مدير المدرسة شهادة تقدير من مدرسة الحلمية

نفخ أحد الحاضرين من الوزراء دخان سيجارة متطاير في الهواء، تعلوه نظرة اشمئزاز لهذا الفلاح الريفي عديم المفهومية ...قوبل بالرفض لكن أصر وزير الحربية على التمسك به.

.. يرى فيه بذرة أمل نحو مستقبل مشرق للأجيال القادمة ...

:: أبوك شغال ايه؟

سؤاله في محله ...توقع هذا السؤال قبل اختباره ..

:: جزماتي

:: شايف أبوك قدوة؟

:: طبعا يا فندم، أيا كان عمله، ده مثال يدعو للفخر

انتهت الأسئلة، خرج ساكنا تراوده الشكوك حول مصيره من ناحية أخرى يتهامس أولاد الذوات مع بعضهم مستهزئين ... شكله سقط.

...بالزمة دي أشكال تتقبل؟

كتم غيظه، غير منتبه لآرائهم السخيفة .... يراه شخص من الطبقة

الوسطى منكسرا وسط أناس عديمي الرحمة لسانهم يتفوه بكلام بذيء كسر خاطره، اشترى زجاجة كوكا كولا من الكشك .... اسمي عبد القادر حفني ...صافحه متوسما خير في ذاك الشخص.

:: تشرفنا.

:: شايفك قاعد لوحدك من الصبح، فيه حد هنا تعرفوا؟

:: للأسف لا.

:: معاك واسطة.

:: ربنا معايا.

:: ونعم بالله.

:: أحييك على خطوتك الجريئة دي، معظمهم بيمشوا أول ما يعتبوا باب الكلية.

:: من وأنا صغير لحد دلوقتي بسمع أوحش من كده.

أعجب حفني بشخصيته القوية، ثباته الانفعالي تجاه الأعين الحاقدة، غير قابل للانكسار يبدو أنه عانى أمور كثيرة، اعتاد على سماع الاقاويل المستفزة، جرأته امام نفسه غير مكترث لأي شيء، لا يلتفت وراء ظهره، يحاول تغيير المواضيع السياسية التي نتناقش فيها.

بعد نصف ساعة ...دلف الصون إلى قاعة الانتظار حاملا في يده اليمنى ورقة بأسماء الطلبة المقبولين. أسماء كثيرة تتردد في لسانه، لا يستطيع تمييزها عن غيرها ... غمض عيناه لحظة مناجيا ربه .... عبد القادر حفني .... خليل عبد ربو ...تتفتح عيناه مستقرة دموع الفرح.



الموسكي - مقهى القزاز

الكراسي مصطفة في صف واحد، صيحات النادل تعتلي أصوات الزبائن حاملا في يده صينية بها المشاريب، دخان الشيشة كضباب أبيض يملأ الأجواء، صخب عارم في لعب الطاولة ...عواطلية جالسين امام القهوة يحدقون بنظرهم مؤخرات نسوة يمشون بخمارهم في الشارع، مع نظرات خجل منهن وضحكات مثيرة ...يا صلاة النبي أحسن ...

يتفحص يوسف أوجه الزائرين، يرى صديقه ملامح وجهه لم تتغير شعره أصبح كثيفا، شاربه نحيف قصير من الجانبين، يده فيها جرح قديم صعب تمييزه، يلبس بدلة سموكنج مع طربوش أحمر، في أخر صف يقرأ جريدة الوفد، في يده سيجارة كيلوباترا

يفاجأه بغته من وراء ظهره.

:: انتا لسه بتشرب سجاير؟

يلتفت له في دهشة واقفا، احتضنه بقوة كأن روحه عادت إليه ..بعد سنين قطع الشريان والوصال عاد الأشقياء، متكاتفين مع بعضهم البعض.

:: إلا بالحق، ايه اللي فكرك بيا بعد المدة الطويلة دي؟

:: فاكرك دايما ...تقدر تقول كنت مستني اللحظة المناسبة ...

:: بعد ما مشيت من البلد، حاولت أدور عليك

:: و أخيرا اتقابلنا ... فاكر البت بهية اللي فرقتنا عن بعض

:: يااه ... لسه فاكرها؟

:: شوفتها امبارح في شارع عماد الدين، كانت راكبة عربية أخر موديل، طلعت من العربية وهيا لابسة فستان أسود أخر الاجا هياكل من رجلها حته.

:: طول عمرها بتحب االي معاه قرش

:: صحيح ياخي خيرا تعمل شرا تلقى

:: متشغلش بالك اللي راح راح حاكم انتا تستاهل الأحسن منها.

زفر منفخا بدخان سيجارته آملا في نسيانها، بعدما حركت مشاعر قلبه تجاهها.

:: نسيتها زمن بحالو ...فجأة ظهرت ليا وافتكرت صورتها وهي صغيرة.

:: لسه شايل صورتها؟

:: حرقتها

حكى له يوسف عن وباء قريته ... قتل عم حمزة .... استعباد الفلاحين بالسخرة ...مصائب ذكي الخديوي ... كان ذلك كافيا في

غضبه ...، كل ما يشغل باله الانتقام وحسب ..من الرجل الذي نفى أسرته ... الأيام الصعبة غير مستقرة ...الطعام الرديء الذي يستجمعه من القمامة ...الخبز الرقيق الذي لا يسد جوعه ... أبيه الذي يستعطف الباشوات لمسح حذائهم مقابل ٥ قروش ... استهزاء أقرانه في المدرسة رغم تفوقه ... بيعه الجرائد حتى منتصف الليل ..

أمه المريضة التي تحتاج لرعاية خاصة .....أخيه الصغير الذي بات دون عشاء.

...تغير الحال وأصبح الوضع على ما يرام، الانتقام صعب نسيانه

:: ناوي على ايه؟

استيقظ من شروده.

:: اخد حقي.

:: مش خايف على نفسك؟

:: يا روح ما بعدك روح.

:: اتغيرت أوي.

:: الجيش علمني حجات كتير مكنتش فهمها

رمى سيجارته، داس عليها بقدمه ...

:: في موضوع كده ...حبيت أفاتحك فيه ...

ينظر إليه منتظرا للدخول في صلب الموضوع مباشرة

:: مسألتش نفسك ..الوبا اتنقل ازاي؟ عساكر إنجليز رجعوا من الهند ونقلوا ميكروب.

لاتنين فلاحين في قرية الكوربة ....الحكومة طرمخت على الخبر

:: قصدك يعني ...الوبا اللي عايشين فيه ده بفعل فاعل؟

:: مش بعيد كمان يكونوا خططوا ودبروا.

:: جايز.

:: الأوضاع اليومين دول مش مستقرة . فيه حملات ممنهجة ضد خواتنا.

:: خواتنا مين؟

:: الفدائيين.

تعلوه نظرة اندهاش ... اقترب من بيان حقيقة صديقه غير معروف هويته الحقيقة.

:: انت منهم؟

:: هتعرف كل حاجة في أوانها.

شعر بضيق ... لماذا لم يخبره بعد هذه المحادثة الطويلة ...الواضح أنه بعث الي لكي أساعده في عمله الوطني لا اشتياقا لي ومحبة ..

:: بعتلي ليه؟

:: قولتلك إني نفسي أشوفك.

:: وشوفتني خلاص؟

وقف منافيا لقوله، زرر قميصه ... أتريد خداعي بتلك السهولة في لعبتك؟

:: اوريفوار

التفت وجهه منتهيا من خوض الحديث ....

:: بكره مستنيك الفجر، كوبري الخديوي إسماعيل (كوبري قصر النيل حاليا)

دلف خارج باب القهوة، يراقبه شخص عن كثب، يترقب حركاته وأفعاله بدقة ...وشاح يغطي فمه، نظارة شمسية سوداء غير متابين، جاكيت أسود قاتم ، قبعة دائرية ... مشى يوسف خطوات بطيئة يلتفت يمين ويسارا، تخطى السيارات السريعة، اتجه للشارع المقابل بحثا عن توصيلة تاكسي إلى لوكاندة ستيفانو - وسط البلد - ميدان روكسي ،جاءت عيناه على وميض عمود الإنارة، شعاعه الأبيض يظهر ظل شخص يلبس قبعة وراء ظهره

بعد متر واحد، لاحظ الآخر ظله المتابين، انكشاف مراقبته غفلة منه، شيء لم يكن في الحسبان ... اختبأ بسرعة وراء صندوق القمامة بهدوء تام، التفت يوسف في لحظة واحدة ...الشارع خالي من البشر .. شبح باتمان يطاردني لعلها هلوسة، هل أكذب عيني؟ ...اتجه إلى تلتوار شارع جانبي متفرع من الشارع الرئيسي، يافطة بنسيون زاكي على مرأى عينيه مشعة بالأضواء البنفسجية ...دلف إلى البنسيون تلعب في عقله الظنون محاط بأمر صعب شرحه، استأذن كومبارس الغرف في الانتظار ربع ساعة، طلع أدراج السلم، الدور الأول، نافذه تطل على الشارع الرئيسي ... تفحص وفاض الشارع.

... الرؤية ليست واضحة، هناك شيء يتحرك في سكون، ظهر من مكان اختبائه متطلعا في أرجاء الشارع بحثا عني .. ظلال شبح مستكين ليلا، ملامحه غير موجودة الأصل ..فقط نظارة سوداء ووشاح حول فمه .. طويل القامة، مفتول العضلات ...أشبه بحارس شخصي.

متدرب على التخفي ... ضحك يوسف ساخرا عند رؤيته ..لعبة قديمة كنت ألعبها منذ أن كنت طفلا .. الغباء في أبهى صورة، أسرق طعام الإنجليز طمعا دون إظهار رموشي.

موعد على العشاء

وسط اهازيج حديقة القصر، المساحات الخضراء الشاهقة، رحيق الزهور النادرة، أشجار الفاكهة متطايرة أوراقها، سقوط حبات التوت على الأرض بغزارة .. خطاف يشق جذر نبتة بلح الزغلول، حشائش السافانا .. انهل الكلب بامسي على لينا .. لعق خديها بأطراف لعابه اللزج .. احضنته حضن أمومة دافىء .. علقت في رقبته ميدالية دهب مكتوب عليها اسمه ...PAMSY .. تكريما لكلبها المتوفي فقدت كلبها الأول في حادثة قطار، منعت عن الأكل والشرب بدونه لعدة أيام، صدمتها أيقنتها أنها بلا جدوى في الحياة بدونه، فرطت الدموع حزنا على فراقه.

البائس، حفرت له قبرا مجاورا لسرداب القصر، إذا غمرت المشاكل رأسها، تكابد عليها حمل ذكرياتها المؤسفة ... ترش قطرات ندى المياه حول قبره، داعية له بالارتواء.

... كلبها الثاني هون عليها تعب الأيام، لو غاب لحظة عن نظرها فزعت خوفا وتذكرت مصير بامسي، يجن جنونها فجأة عند اختفاءه، شقي يحب الهرب والتجول في الأنحاء.

أرسل بوغاشي باشا رسالة إلى قصر الحامولي ... عودته الأسبوع القادم من روما مستضيف الأسرة على العشاء ....قصر البارون، مع قائمة من كبار المدعوين والأعيان والأمراء.

تستلقي على الكرسي المجاور لصفية هانم، تدلك خصلات شعر بامسي برفق ولين ...

لينا: بونسوار ماماه

صفية: بونسوار

صفية :: بوغاشي باشا كلمني عنك

لينا :: عاوز ايه؟

صفية: يتجوزك ...عقبال البكاري

قابلته صدفة ... تاجر خمور كبير في البندقية، استلطافه صعب بالنسبة لها .. كلما نظرت إليه يأكلها بعينيه، طامعا في اقتناء جسدها الجذاب ...الأفخاذ البيضاء .. ثديها البارز.

لينا: مش موافقة.

صفية: اووووف، هتفضلي كده لحد امته ترفضي عرسان

زفرت لينا: لو ده أخر راجل في الدنيا مش هتجوزوا ... Impsepiol

صفية: صفصفي شعرك عند الكوافير، والبسي dress ..الأسبوع لجاي معزومين على شرف بوغاشي باشا.

امتلأ فمها بالهواء، أطلقت عنان زفيرها غير راضية ... لا تبالي شيئا مما قالته، تتركها مع فنجان قهوتها، امتلاكي قلبي سيكون صعبا عليه مراجعة حساباته جيدا ... سكري تصرفه أهوج، يطالع

عورات النساء .. نكتة سوداء في حاجز الرئة يصيبني عند التحدث معه، لا يجيد الكلام مع الهوانم المحترمات ....

أقفلت عليها ترباس باب غرفة نومها، غير راغبة في سماع سيرة غوباشي السكري ...

دق الباب ... لينا ... لينا

فتحت الباب على صوت أبيها .. كن لها مشاعر فياضة لم يرغمها يوما على شيء، تراه رجلا نبيلا - حنون – مرهف المشاعر في نظرها وهو للأسف ثعبان مفترس يلتهم فريسته وقت الانحصار في ضعف، نقطة ضعفه الوحيدة ابنته، مستعد لفعل أي شيء لأجل راحتها، يهديها الدنيا وما فيها، يمزق الكارهين لها إربا، يدمر حياتهم مثل عقد السيجار المتفحم.

:: خير ...مين زعل القمر؟

تتمايل عليه في دلع ورقة أنثوية عفيفة

:: ماماه زعلتني.

:: خايفة عليكي، عايزه مصلحتك ...نفسها تشوفك مبسوطة

:: بحبوش.

:: مش مهم ...الحب هيجي بعد الجواز

:: اتجوزت ماماه ليه؟

:: أصلها وفصلها يشرف ...أبوها حامولي بك ليه أفضال عليا

:: يعني مش عشان بتحبها؟

:: الكلام ده في الأفلام، والحواديت اللي هيا أصلا مش موجودة في واقعنا ...لما تكوني مرات غوباشي باشا الكل هيعمل ليكي ألف حساب، هيلبي كل طلباتك.

هيعيشك في مستوى مرموق يليق ببنت ذكي الخديوي ... هيفرش الأرض حرير ليكي، مش متخيلة ممكن يعمل ايه عشان ينول رضاكي؟

:: أول مرة أشوف نظرة الإجبار في عينيك.

يقبل يداها مستعطفا لها، يهدىء من روع صوته مستحث في طلبه

:: محدش هيجبرك على حاجة ... موعد تعارف مش أكتر

:: اوكيه

اتخذ الأمر تدريجيا دون إخبارها بالمصالح المشتركة بينهم، أرسل إليه صباح اليوم اثنان صناديق بولانكى، جوم وكر ..برقية .مع أطيب تحياته.... وسكي ١٩٣٠ نادر يستحق شخص مثاليا ... التصقت في ذهنة إبرام صفقة توريد ... الفودكا شحت من البارات ...ستكون ضربة قاسمة لتجار السوق السوداء.

الساعة ٣:٥٠ كوبري الخديوي إسماعيل

اقتربت الساعة من ٤ مساءا، حدق في ساعة اليد مستطرد الأوهام من عقله الباطن .. لم يظهر ...يبدو انه غير مهتم للفداء في سبيل الوطن .. بن باشا عاش حياته بالطول والعرض لماذا يختار طريق نهايته مأسوية؟ مال من الانتظار، مشى خطوات ثابتة نحو سيارته لمح شخص من بعيد ....يوسف

:: كنت متأكد انك هتيجي

:: باعت عصفورة ورايا ...مش عيب

:: سلامتك تهمني

:: ما علينا، خش دوغري

:: شروط التنظيم ... ممنوع الأسئلة - الاستفسارات

::يعني ايه الكلام ده؟

:: بعد ما توصل لمرحلة معينة من الكفاءة ...هتعرف كل اللي عايز تسمعوا.

:: بس ...أنا مبعرفش أمسك سلاح ..وأوزع منشورات

:: مش مهم.

:: اخترتني ليه؟

:: أسئلتك كترت وده مش في صالحك .. بكرة في نفس الميعاد هتعدي عليك عربية بيتلز قدام باب الفندق الخلفي

:: ولو رفضت؟

:: ليك حرية الاختيار.

انتهى الحوار ... كان يتمنى أن يرد على اسئلته ... يكتب يوسف في دفتر مذكراته ... أريد أن أغدو شخص آخر ليس حكيما يداوي الناس البسطاء الجاهلون بكلام كتب وحكم فارغة نحو الأمل والتفاؤل وهم في أنفسهم يائسون من حياتهم يتمنون الموت ألف مرة ..كنت صغيرا حينها أسقطت طيرا زاجل خلاب اتجه خارج قصر الحاملي .. وجدت أنبوبة بها مسحوق أبيض كنت أظنها مادة سكرية .. كنت أنوي تذوقها، أمسك أبي بذراعي يتفحص النظر فيها .... ماهذا أبي؟ لم أدرك الأمر بعد ... تعبت من عناء العمل ...أشاهد أناس يحتضرون كل يوم .. الشهادة لا تفارق ألسنتهم .. بمقدوري أن أعيش كما أريد ولكن هناك شيء خفي يحرك دوافعي ... نظرة الإحباط أمام أناس يستسلمون تهز وجداني،   .. عاهدت الله انني سأنصر الحق مهما كان الثمن ..سأكون شوكة في حلق الأعداء ... سأكون رمحا يرشق صدورهم الحاقدة الكارهة ...سأكون سيفا يقطع ألسنتهم الكاذبة ...سأكون عونا للمظلوم وعقابا للظالم ... سأصبح جلادا يحتذى به عدوي ... قرار بلا رجعة.

وحيدة بين أغصان الشجر

سارة تتأمل القمر ليلا ... عندما أشعر بالوحدة، أنظر إلى القمر، شخص ما في مكان ما ... تحدق في القمر نفسه ..إنها أمي تنظر الي في بهجة؟ سأنظر إلى القمر مادمتي تضحكين لي ..إنها طريقة للاستمرار في حبك .. أنتظر القمر حتى يكتمل، مخاوفي إلى أن يأتي السنة القادمة ... تؤرقني الوحدة وأشعر بالحزن، أتذكرها بصورة مبهمة ... أجهشت البكاء.

جالسة تحت الشجرة تدقق النظر في صورة أمها ... تراها زينب عن كثب متأملة دموعها.

... لازلتي تذكرينها حتى أنك لم تريها قط منذ أن كنت رضيعة .... هل روحها تطاردك في أحلامك ... دلفت إلى الشجرة.

:: هتعيشي حياتك امتى؟

التفتت وراءها ...

:: صورتها ما بتفارقني ولا لحظة.

احتضنتها ..قبلت رأسها.

:: يا روحي ..

:: بيقولولي إني شبه ماماه ... حتى شوفي صورتها.

صورة قديمة أبيض وأسود ... ١٩٣٣ ..نيرمان في مبنى الإذاعة ...بجوار المطرب عبد الوهاب

تم عرضها على طبيب نفسي ..تعاني اضطراب التوحد .. خلل في الصفات الجينية أو الوراثية.

.. نقص الأمومة بحد ذاته ...نتائج سلبية. اعتقادها أنها حية في لندن مع عشيق آخر يجلب لها بصيص أمل في الحياة.

حي الأزبكية - شارع كلوت بك

ليلة القيامة ... تتخلل الأمطار متداعية فتتسرب القطرات إلى سطح السور ..شلال يصب الماء للأسفل ... رياح شديدة تجرف أوراق الشجر ...وقف يوسف منتظرا ... دقت ساعة العمل، مرت سيارة بيتلز مصفحة سوداء ليس بها لوحة أرقام ...خرج رجل من باب السيارة يرتدي نظارة سوداء وبدلة بريوني إيطالية .. لديه أثر جرح مطوه قديم في وجهه، متشققة عينه إلى اللثة، بقايا شظايا في يده ... كبل عيناي بقطعة قماش، أذهبت بصري في لحظة ... تمويه أمني، ركبت أتحسس مقعدي الخلفي كل ما أسمعه كلاكسات السيارات، مكابح الفرامل عند المطبات .. دبدبة ...شهيق ..

بعد نصف ساعة من العتمة ... شال الغطاء .... طاولة مدججة بالأسلحة والقنابل والديناميت .... رجل يلف التبغ بورقة ثم يلصقها بلعابه اللزج .... مخطط تنفيذي معلق على الحائط به قوائم الاغتيال .... آلة كاتبة بها رسائل مشفرة ... ملابس عسكرية إنجليزية ... بدل وطرابيش ... حارس شخصي خلف الباب ...

رجل عجوز اقترب له ... لديه خاتم في يده اليمني محفور عليها اسم .. ادوارد .. عيناه واسعتان بنيتان، أسفلهما شارب طويل وذقن بيضاء ... تبدو عليه ملامح الشيخوخة ... يرتدي بدلة رمادية بريوني ... الرأس المدبر ...العقل الراجح الحكيم ... كلامه يعد سيفا على الكل ...

:: أهلا وسهلا

يترقب خاتمه الفضي ...

:: اسمك ادوارد؟

يبتسم منصت لكلامه ... اشعلت فتيل ذكريات شبابه ...ليت الشباب يعود يوما.

:: لا.

:: متأخذنيش، اومال الخاتم ده بتاع مين؟

:: أفضل إنني مجاوبش على السؤال ده.

:: نتعرف؟

:: التعلب.

:: ايه؟

:: التعلب.

:: احنا جايين نهزر هنا ...تعلب ايه وقطة ايه؟

قاطعه خليل ..همس في أذنه ... اللي قدامك ده زعيم التنظيم....

ابتلع مخاط حلقه، انشلت حركته ببطء ..لا يعرف رد مناسب

:: اعتذراتي ... التعلب اسم حركي ولا......

قاطعه في شرود.

:: انت هنا تسمع وتنفذ، مش مهم تعرف هويتي

:: اخترتني ليه؟

:: انت بالنسبة لينا كنز ... بعد التحريات أثبتت إنك ملكش سجل إجرامي، شخصية مستحيل حد يشك فيها بن باشا .. ملكش في السياسة.

:: اومال أما انتم مش شاكين فيا بتراقبوني ليه؟

:: جس نبض.

يقوم واقفا من كرسيه باعثا إليه كلمات تصب تنويه من قواعد التنظيم ... خليك فاكر مادام دخلت الكوخ مفيش رجوع ......

دلف حفني إلى الغرفة يودع التعلب قبل خاتمه يعتبر التعلب الأب الروحي لأعضاء التنظيم، خيانته تعني انقلاب شامل، حفر قبر قبل ولادته حكايته تقوضت منذ سنين ...عاد مجددا لبث الذعر والرعب.

:: العربية جهزت.

ركب سيارته وانطلق في هدوء تام وسط حراسة مشددة ملتفين حوله يراقبون المنافذ والمخارج.

:: أعرفك بنفسي ...عبد القادر حفني ظابط سابق.

صافحه ..مقتربا من رائحة فمه الكريهة التي يملأها دخان التبغ

:: تشرفنا.

خليل:: حفني هيكون المسئول عن تدريبك

يطبطب على كتفيه تحفيزا ...

:: أهلا بيك.

جلسة سرية:

:: تفتكر هيقدر يقوم بالمهمة؟

:: كل الاحتمالات واردة.

:: الحفلة بعد أسبوع ..... الوقت مش في صالحنا

الساعة ٤ ونصف ..

.... غرفة منعزلة كل ما فيها زجاج كاتم للصوت .. انتظر ساعتين في الغرفة محدقا عقرب الساعة يمشي يمينا ويسارا محركا أرجله المنملة، الباب موصد لا يستطيع الخروج ... نفخ الهواء استنفارا لما يحدث يعلي صرخاته ولا أحد يسمعه ... يريد كسر قفل الباب ...صعب جدا القفل فولاذي ...سئمت من هذه المعاملة الحقيرة، جرذ يحبسونني في مستنقع رديء .. اكتفيت من اللعب ... وهبت نفسي لأناس لا يستحقون دمي.

فتح حفني الباب، جلس على الكرسي المجاور ...

:: الساعة خمسة ... هينطفي النور

:: هقضي حاجتي فين؟

:: عندك جردل.

:: تجننت نااا بن زركش باشا ... يتعمل فيا كده؟

تطاول نظره .... غير مكترث.

:: أهم قاعدة في المنظمة عندنا مفيش ألقاب، ميهمناش انت بن مين وجاي منين.

:: طب الأكل والشرب؟

:: ازازة ميه ورغيفين عيش

:: افندم ... ده الفطور؟

:: اعتبره فطار، غدا، عشاا

:: كده كده، نفسي انسدت من الأكل ... أسلي وقتي ازاي؟

:: الساعة ١٠هناخدك في جولة تدريب.

:: وبعدين تحبسوني زي الكلب .... خليل عارف الكلام ده؟

:: فوتك بعافية.

اقفل الباب بإحكام، كلامه قليل، عاش هذه التجربة المريرة من قبل، تلقى مسؤولية التدريب.

... يتم القبول بعد تخطي الاختبارات النفسية والجسدية، الذراع الأيمن للتعلب ... يقوم بتنفيذ المهام المطلوبة على أكمل وجه دون إراقة دماء... تجنيد الأعضاء الجدد ... تدريب على إطلاق النار ... تدريب على استخدام القنابل اليدوية ... تدريب على الثبات الانفعالي عند المواجهة .. شرح علم النفس ..سيكولوجي الظروف الملائمة للعيش وسط العدو ...

... يعد فردا شامل المهارات والإمكانيات خسارته تعني الكثير ... حوكم بسنتين سجن مع الأشغال الشاقة وطرد من الجيش .. مشتبه به ضمن أحداث طلعت حرب ... عضو في جماعة الإخوان المسلمين ...سجله كان كافيا لإبادته مدى الحياة ...

استيقيظ على عتمة من الليل، يتحسس الأشياء من حوله ...يسقط فيلعن الدنيا وما فيها ....يلعن الساعة التي قابل فيها خليل.... أشعل فتيل عود ثقاب ... حرق ظفر إصبعه ... سب حفني بعالي صوته ... يا بن المره .. تغوط في الجردل .. فاحت منه رائحة البراز المقززة كاد يختنق من تعفن سترته ... .. نام على الكرسي متأمل عتمة الليل .تخيل نفسه في القبر يحاسب .. الاستعداد للموت شيء صعب تقبله ... مواجهة شبح الموت عائق مروع ... أخشى الموت دون محاربة ...مجادلة ... دع موتي يا ربي يستحق شيء يزيح الجمر من صدري لعل الناس يذكرونني خيرا ...

الساعة ١٠ صباحا.......

فتح باب الغرفة ... أفرغ من نومه حينما سكب دلو شلال ماء على وجهه ... بلل سترته .. شعره المجفف ابتل ..

:: قدامك عشرين دقيقة تاخد فيها شاور

تجزع نفسه كز أسنانه .....الله يلعنك دنيا وأخرة فيه حد يصحي حد كده؟

... انتقل إلى الحمام .. غمر جسده في البانيو .. استخدم الليفة في استخلاص الروائح الكريهة.

دلك فروة رأسه بالشانبووو ... انتعاش وحيوية .. كنت أظن أنني سأتعفن في هذه الغرفة طوال حياتي ...حمدا لله على نعمة المياه

... ارتدى بدلة سموكنج، جوارب وجزمة سوداء فاقعة اللون ... أتقن ربطة العنق ..سرح شعره للجهة اليمنى .. وضع كالونيا ..دلك برفق الجلد ..

... دلف إلى مكتب حفني بصحبة حارس شخصي يؤمن له الطريق ... منشغل في قراءة جريدة الأهرام ...١٥ أغسطس ١٩٤٧ .. يتشرف أعضاء البرلمان المصري حضور حفل رواد الأمة ... مع تهاني صاحب العظمة .... قرأ الجريدة مدقق في كل كلمة ... تفحص قائمة المدعوين في الصفحة المقابلة .. طقطق صوابعه ... جلس

أمام الكرسي المجاور منتظر تعليماته اللبقة المستفزة.

:: التنفيذ أخر الأسبوع.

تفاجأ من الخبر ... يوم واحد ...دون تدريب – تخطيط عملي

:: معرفش أمسك سلاح ..

:: عقلك هو سلاحك.

:: مش فاهم.

أظهر من جيب الجاكيت ... قطارة سم الافعى ... مستخلصة من لدغة أفعى الكوبرا.

:: سم الأفعى ... ٣ قطرات من كفاية أن تنهي أجله.... أخذ صورة من درج المكتب بعدما أقفله بإحكام ... أعاد التدقيق والتفحيص والتمحيص في الصورة.

:: مين ده؟

أشهر الصورة في وجهه ...

:: الجنرال جون ميندي ... قتل ستين متظاهر في ميدان طلعت حرب ... المحكمة الجنائية برأته بالتهم المنسوبة إليه لعدم كفاية الأدلة ... رده إن فيه حركة جهادية من الإخوان المسلمين حاولت مهاجمته... أدى أمر ضرب النار ...

لا يستطيع إكمال حديثه ... صور جثث القتلى لا تفارق ذهنه، ممزقين أشلاء ...تشنج، صداع نصفي يدمر خلاياه العصبيه، ابتلع حبة مهدأ .. رشف قطرات ماء.

:: تذكرة الحفلة .... البدلة ... في لوكاندة ستيفانو ...التذكرة باسم رشدي نجاتي جورنالجي . لما توصل الحفلة السفرجي هيكون في انتظارك في الممشى هيدلك على مكان الجنرال في البار هتلاقيه سكران طينة .. اعمل معاه سبق صفحي .. اغريه ..قدامك وقت تحط السم ... مفعوله هيبدأ بعد دقيقة ..

:: هيعرفني ازاي؟

:: كلمة السر ..

:: لو اتقبض عليا؟

:: ساعتها منعرفكش ولا تعرفنا.



الأب الضال

عشر سنوات عجاف، تستبقه أحداث مأسوية .. معاناة دامت خمس سنوات، لم يذق فيها راحة البال، حليق الرأس .. يرتدي زي مخطط ... السجين رقم ٥٥ .. تشريفة لائقة أدت به إلى سحله .. كدمات زرقاء تحت عينيه، جسم منهك من كثرة الضرب ... دماء فمه متناثر .. زنزانة انفرادية بها نافذة قضبان حديدة .. غفلت جفناه متذكرا ابنته سارة .. نور حياته التي كانت تشع في قلبه الأمل الباقي الذي يعيش من أجله .. يأتي يوم واحد عليه كألف عام .. مجرياته تتغير، الضعيف ليس له خيار وسط السفاحين والبلطجية والحرامية ...لكي يعيش في السجن بسلام عليه دفع ثمن لائق .. قواعد فتوات اللومان ... على قدر ما تدفع على ما قد ما تنال مكانتك وقيمتك .... انطباق معدوم لرجل مفلس أدت به إلى هاوية الحقراء في مطبخ السجن صباحا يحضر العدس ....مساءا في المغسلة .. ينتظر أياما معدودات في استراحة الزيارة .. متى ستأتين يا حبيبة أبيكي؟ أريد أن أنظر إليك قبل موتي .. لا أدرك هل سأعيش لذك اليوم أم لا .. أدعو الله أن ألتقي بك .. مرت ثلاث سنوات عصيبتان عليه عندما كان يخدم اعتى مخلوق .. يأس من معاملة فتوة السجن له ... يطفىء السجارة تحت في كف يده .. دلق شوربة العدس الساخنة في وجهه ... يكره الملح الزائد ... إهانة وقذف اعتاد عليه منذ أول لحظة تشاركا فيه

الخبز مع زميل له في السجن .. خائف من الغد ..يؤول شكواه إلى ربه مستغيثا أن يمر اليوم بسلام .. نسي يوم ما سعى لأجل خروجه .. رسم بطبشير على جدار .. سارة .. صباح الخير يا سارة .... تصبحي على خير.

علاقته بهذا الاسم ارتبطت ... يتخيل أنها بجواره كل يوم .. سأله زميل عنبر الزنزانة.

:: مين سارة؟

نظر إلى رسمته ... طفلة صغيرة ذات ضفيرتين

:: بنتي الوحيدة ... هيا اللي بتهون عليا تعبي، حزني، مرضي

خرج من السجن .. يبحث عنها في الإسكندرية ..الأحياء ..الشوارع ..الميادين، انقطع سبيل نيرمان عن عائلتها طوال عشر سنوات ... أدرك أنها هاربة من مصير محتوم، يبتغي لقمة عيش هنيئة بعد أيام من الجوع والتقشف، الأبواب موصدة في وجهه ..لا أحد يرضى بقبول عمل ..راجل رد سجون... ربط معدته بحجر كي يسد جوعه ... نام في الليل عند عتبة المسجد ... يرتعش من البرد القارص ... ترتجف شفتيه ..ترتعش سيقانه ...ساعة الفجر الإمام بوعلي أخذته شفقة به ولروحه المسكينة .. لا حول لله يا رب ..أصابته قشعريرة .. كساه بعباءته البيضاء .. حمله إلى داخل المسجد .. مستكمل نومه ... غير واعي ... في الصباح شكر الإمام ..

مستحث طريقه المبشر بعدما وصدت الأبواب كلها في وجهه .. حكى له عن تاريخ زوجته وبنته سارة التي يبحث عنها وعن معاناته داخل السجن .. عمله الذي طرد منه ..أهله الذين ابتعدوا عنه ...يحسبونه مذموما من المجتمع .. باب لقمة العيش الموصد بالقفل والترباس ... بطنه الفارغة الشاهية للطعام ...

:: اول مرة أنام وأنا مرتاح ... بعد ما الدنيا قفلت في وشي بالضبة والترباس، حسيت إن فضلي أيام وهموت من البرد.

:: سيجعل الله بعد العسر يسرا.

أجهش البكاء بحرقة ...

:: تعبت واستحملت خمس سنين شقى .. خمس سنين دوقت فيها طعم الذل والإهانة ... أوقات كنت بتمنى الموت لما أتحبس في زنزانة ضلمة وأقعد أكلم نفسي بالأيام .. كنت بعيط قلبي مكسور على بنتي اللي مشفتهاش ... زيارة ورا التانية ورا التالتة ورا الرابعة ورا الخامسة .....قاعد وحيد مستني حد من أهلي يجي يزورني ... كلهم اتخلوا عني في وقت محنتي ...

محدش طبطب عليا ... ولا حد داوى جرحي ف .. مبقاش ليا مكان في الدنيا دي .. تفتكر هشوف بنتي قبل ما أموت؟

:: ربنا زي ما نجاك من البرد قادر إنه يزيل كربك ...استعن بالله

بعد ١٠ سنوات

ساعده الإمام بو علي في البحث عن عمل يأكل به حلالا طيبا .. آواه في بيته وتقاسم مع الطعام والشراب ..حتى أصبح أخا له في السراء والضراء. عمل عبدالمجيد كومسري في ترماي بو قير – الإسكندرية ... قرش على قرش يساند يومه التعيس ..عاد إلى بيت الإمام بو علي في الاسكندرية ....محطة الرمل .....من العمل منهك ...مشلول التفكير بعد عمل متواصل لست ساعات متتالية دون راحة ...

١٣ أغسطس ١٩٤٧

.. الازبكية شارع كلوت بيك ..... اجتماع طارئ

وطأت أقدام التعلب المخزن اصطف الحضور في صف واحد .. صمت بلا همس جانبي، جلس على كرسي عرشه واضعا رجله على فخذه اليمنى ... مدخنا سيجار كوبي نادر .. استنشق الدخان في ضيق ... حبس أنفاسه لولهة ثم شهق، دقق النظر في العيون تحاوطه بعض الشكوك ... اكتشف خائن بينهم .. وقعت في يده رسالة أرسلتها الحكومة الإنجليزية ... رأس التعلب .. اعتاد على الخيانة منذ الصغر .. خانه أخيه .. اتم بلاغ عليه من الحكمدراية عندما سرق مخزن الذخيرة ..من معسكر ..... طعنة مؤلمة في ظهره كسرت عموده الفقري الذي يشتد به عند المصائب، نوى له الشر مقابل ثمن بخس ... لم يتردد في قتل أخيه من لحمه ودمه عندما علم أنه باعه بكل سهولة دون أن يرق له جفن، اكتساب ثقته أصبحت صعب المنال .. نائب عرشه لابد أن يكون مثله شرس، لا تتمكن منه العواطف والمشاعر، مصلحة المنظمة أهم من مصلحته الشخصية، الانتماء أهم عامل لبناء الشخصية القوية، يستطيع العودة عند الهزيمة ...

شاور بالسبابة اليمنى ... على حسن بو ريشة، فرد من أعضاء المنظمة ... قبض عليه بتهمة توزيع المنشورات في ميدان التحرير في مارس ١٩٤٦.... احتجز شهرين وخرج من سجن طره متعاونا

مع الحكومة الإنجليزية ... تخلف البروتوكول المعهود .... عهد الفداء ..، طمع في حريته المسلوبة .. أغرته صناديق جنيهات الذهب، نسي العهد الذي أقسمه على نفسه ..

:: ليه خنتني؟

شل لسانه، اضطرب وتوتر ...ابتلع ريقه يتمنى أن تشق الأرض وتبلعه ..لحظة صمت.

:: بعتني بكام؟

:: مستحيل أعض الايد اللي اتمدت ليا.

:: اوعى تفتكر إني طيشة مش داري بيك ..عارفك أكتر من نفسك ممكن تبيع أهلك وناسك عشان الفلوس ..الرسالة وقعت في ايدي ولعبتك القذرة انكشفت.

:: لا عاش ولا كان اللي يبيعك.

:: ده عاش وكان ودلدل رجليه كمان ...الخيانة تمنها ....الموت ...

حنى رقبته وظهره مقبلا قدماه متوسلا باغيا العفو ....

:: السماح ...السماح ......السماح

:: ربنا هو اللي بيسامح

امسكوه بقوة من الفرار يقاوم ويتزحزح يمينا ويسارا .. ربطوه

بالحبال والأغلال ... لكموه لكمات في وجهه أدت به إلى فقد وعيه ... أجلسوه على الكرسي .. الدم ينزف من ضروسه ... كدمات زرقاء على خديه ... يراقب يوسف الأجواء الملحمية في صمت تام .. حالة انبهار بشخصية التعلب الخفية ... رغم شيخوخته وتجاعيد وجهه وجسده الضعيف ... جبروت ...قاهر لا يخشى لومة لائم ... كان جريئا جدا في اتخاذ قراره لا يهتم بالنتائج أو يتوقى العواقب ... شبت فيه نيران وثأر الماضي من أخيه اللدود الخائن ... هاجت عواصف كبريائه ...فانتقم منه انتقاما شديدا ... أخذ سيكنه المقوس ..طعنه سطحيا معدته وقفصه الصدري عدت طعنات أدت إلى نزف حاد في جروحه ... أظافره اقتلعها واحدة تلو الآخر .. انتف أهدابه وفقع عينيه ...صرخ مستغيثا متمنيا الموت .. ليس بمقدوره تحمل الألم ..الرحمة ..الرحمة ..أغمض يوسف عينيه غير قادر على مواصلة رؤية نفس تتعذب قبل حسابها ....يبدو أنني أخطأت عندما جئت إلى هذا المكان ... أين رحمة قلوبكم؟ أين عقولكم؟

مسح بمنديله سكينه المقوس الملطخ بالدماء ... يغمره في الماء ويدلكه...

:: الفاتحة على روحه.

تذوق شراب كونياك .. رشفتين من القارورة جعلته منتعش بروح الانتصار.

. فارقت روحه جسده ..جثته ملطخة بالدماء بين يديه ... لم يكتف بانتقامه فحسب ... لم يرسله إلى القبر بل رماه في أحد السيول الجارفة ليرتطم بصخرة عن اليمين وأخرى عن اليسار هشمت عظامه وتكسرت أضلاعه ..

امر البقية بإخلاء المخزن وتركه هو ويوسف وحدهما .... أراده أن يرى عقاب الخيانة لأخذ العبرة والعظة .. تخطى الطبيعة الفطرية .. الرحمة التي زالها من قاموس حياته .. سيطرته على مشاعره الفياضة .. اندلاع الاستغاثة بالنسبة له أمر هين.

جلسا على المائدة ...أمامه لحم مقدد طري شهي ...قطعها بالسكين ثم غرس الشوكة في قطعة اللحم ..تناول قضمة صغيرة ... مسح شاربه بمنديل قماشي.

:: أكتر حاجة بكرها في الحياة ...الخيانة ..

:: ليه مرحمتوش قبل ما يموت

:: أنا مش ربنا عشان أرحمه.

قصر البارون ... .حب من أول نظرة ..

١٥ غسطس ١٩٤٧

حديقة واسعة غنية بالنباتات يتوسطها طريق صاعد إلى باب القصر، فوانيس نحاسية تحوي شموعا تنير الطرق، ثلاثة تماثيل بيضاء لمقاتلين أشداء يحملون نسورا وسيوفا ويطأون رؤوس أعدائهم تحت أقدامهم، انتشر الخدم في الأرجاء يرشدون المدعوين ويعاونون السيدات في النزول من العربات . .. سورا عظيما أمام باب القصر سيارات فارهة وعربات دوكار ...

يتبادلون التحيات الحارة والقبلات والأحضان بين بعضهم البعض ... نساء تشع نحورهن أنوار الحلي والماسات بجانب رجال ازدانت أصابعهم بالخواتم والسيجار الفاخر.

نزل يوسف من عربة الدوكار، عند البوابة سألوه عن اسمه فأبرز دعوة باسم ... رشدي نجاتي ... جورنالجي في جريدة الأهرام سافر إلى بعثة في لندن منذ شهرين .... متنكر في هيئة رجل بلغ الأربعين من عمره ... ذو لحية وشارب بها خصلات بيضاء .. نظارة دائرية ... مسحوق مكياج انساب على بشرته .. غيرت ملامحه ..

دلف إلى الممشى مندهش العواميد المنحوتة الفن الهندوسي ..التماثيل ذات الطابع الأصيل، الحضارة العريقة التي امتدت

لأعوام، حدق عيون الزاور بحثا عن دليله المنتظر ....

ظهر وسط مجموعة يحملون صواني المشروبات ... سفرجي نوبي عريض الكتفين ذو لحية كثيفة .. اقترب منه عدة خطوات باغته من خلفه في لحظة صمته ...التفت يوسف عند سماع صدى خطوات أقدامه ...

:: كلمة السر

:: التعلب

:: اتفضل معايا

تابعه إلى صالة الحفلة الموسيقية ... كبار الزوار يستمعون سمفونية بيتهوفن، مع عزف الساكسفون العذب، يكتم أنفاسه وينفخ في البوق ... المايسترو يشاور بيديه الألحان الموسيقية ... مرصوصين في صفوف متقاربة ... يصدرون صوت واحد في وقت واحد ..

:: موكب الجنرال هيوصل بعد نص ساعة ... بعد ما تم المهمة هكون في انتظارك في الحمام.

... طبعا عارف التعليمات ...متتكلمش مع حد

... تركه وذهب إلى مائدة الطعام، يقدم الشراب إلى كبار الزوار... أخذ يجول بنظره إلى فساتين الفتيات المراهقات وأردية السهرة

الباهظة .. اللواتي يرقصن بنعومة ورقة ورشاقة .. تحدث مع الماضي المؤرق أفنيت عمري في خدمة أهل بلدي ونسيت نفسي ... هل الحب يدق القلوب كما يقولون؟ أم هذه قصص خيالية في الروايات والحواديت ..لم أتذوق طعم الحب من قبل يا ترى طعمه لذيذ أم ماسخ؟ معظم المراهقات التي كتبت لهم جوابات غرامية أثناء دراستي ... كنت أشعر أنني غريب الأطوار بجوارهن .. أفكارهم ضئيلة عن الحب ... تفتنهن الوسامة فحسب، أما الحب لا يدوم عندهم ينسونه كمثل أوراق الشجر المتساقطة من الرياح الشديدة ... زاغ بصره في لحظة.

فاتنة رقيقة الملامح، شعرها الملفوف بالبوكلات، فستان أسود قصير التنورة يليق ببنت أمير.

... جلست بمفردها على تلك الطاولة لمدة عشرة دقائق .. أترقب حركاتها وطقطقة أصابعها .. كأنها تنتظر صديقها أو حبيبها ... لا أعلم .. لكن ما شد انتباهي أنها تنظر إلى ساعتها كل دقيقة ربما تأخر عليها ... إلى أن طلبت كوب شمبانيا ... بعد عدة دقائق .. تراصت خمس أكواب شمبانيا شربتها مرة واحدة شربتها في خمول ... عاجزة عن الابتسامة في وجه السادة الحاضرين ... تهافتت عليه امرأة عذراء تطالعه عن كثب ... تنفخ سيجاره.

شدتني تلك اللمعة في عيناها ربما تكون دمعة لا أعرف ... أنا أيضا أنتظر شخصا آخر أريد قتله ...ولكنه تأخر عن موعده ... بدأت

الفاتنة تبكي بحرقة فأتى إليها النادل ووضع أمامها مناديل ورقية ولم يتفوه بكلمة واحدة ... ذهبت إلى النادل فقلت له:

:: البنت اللي قاعدة هناك دي اسمها ايه؟

:: لينا هانم.

...لينا اسم جميل زي صاحبته ... الجمال خداع ... تقدم إلى طاولتها طلبا في رقصة على عزف بيانو ... رص شعره إلى اليمين .. أعدل بدلته وقميصه ..أتقن ربطة الببيون

:: مازمازيل ..ممكن تسمحي ليا بالرقصة دي؟

لم تعره اهتماما ... أكملت شربها ...

:: ميرسي ..مش عاوزه.

رسم ابتسامة خفيفة ...

:: انتي مستنية حد؟

زفرت :: هووووف

:: شكلك مش مبسوطة

:: متضايقة حبتين.

:: عندي حل لمشكلتك؟ ... غمضي عينك مع صوت الموسيقى

الهادية هتحسي إن فيه حاجة حلوة بتحركك من جواكي .. افتكري أجمل اغنية بتحبي تسمعيها ...افتكري أجمل حاجة حلمت إنك تحقيقها .. افتكري المواقف الحلوة اللي عشتيها مع صحابك ... افتكري فتى أحلامك اللي بيجيلك في منامك.

... بعدما كشرت عبوستها ... ابتسمت في ضيق ... فتى أحلامي ..ههههه

غمضت جفونها ... تبحث في خيالها الواسع عن شيء ينجيها من كآبتها وعزلتها تحاول نسيان ما أتت لأجله ... متذكرة كلبها بامسي الفقيد، رفقاء المدرسة .. أفلامها المفضلة ... ضابط وأربع بنات ... أنور وجدي معشوق المراهقات.

... فتحت عيناها مستدركة سعادة وشجن ... غازلها بلطف

:: ايه مواصفات فتى احلامك؟

:: طويل . أمور .. شعره سايب زي أنور وجدي ..

:: تخيلي .. المواصفات دي لايقة عليا طبق الأصل

:: اهم حاجة بتعرف تقول كلام حلو؟

:: اومال!

:: سمعني.

:: انتي المنال اللي بتمناها ... وضحكتك فرحة بستناها ...ونسميك مفيش أجمل من كده في هواه.

... أصابتها حالة إعجاب ... جذبها وثقته بنفسه .. لبق ... يجيد المغازلة، لا يعرفني جيدا ويتحدث معي عن الحب ... كلامه زاح الثقل عن كاهلي .. أنار شيئا يومض قلبي.

.. هل هو شاعر ...فليسوف ... معلم ... حقا إنه شخصية مثيرة للاهتمام.

:: شايف نظرة إعجاب في عينيكي

:: لا ...افتكرت حاجة كده.

:: عيوني متكدبش أبدا ... عارف النظرة دي كويس.

احمرت وجنتيها ...غير قادرة على تعبير مشاعرها تجاه شخص مجهول.

:: هترقصي ... العرض مستمر.

سحب يديها إلى الصالة الدائرية ... وضع يديه على خصرها ..مواضعة يديها على كتفيه مع نغمات موسيقى بيانو .. تأمل ساقيها الرشيقتين أسفل التنورة .. وخط الجورب الداكن ..طلاء أظافرها البنفسجي ... أصابعها الرقيقة التي عانقت يديه ورائحة الكالونيا الزكية .. ينظر إليها فتضحك يتوقف عقرب الساعة آمل

في عناق ... قبلة من شفتيها الصغيرتان .. تسقي عطش الظمآن .. تدواي جرحي ... تشعرني أنني أسعد مخلوق على وجه الأرض .. تأمل ساعة الحائط .. اقتربت الساعة من الثامنة ...موعد وصول الجنرال ... سكرة الحب أغرته ونسي ساعة الصفر .. توقف عن الرقص وزاح يديه من خصرها يدقق ساعة الحائط

:: معلش ..همشي دلوقتي

:: هشوفك تاني.

:: خدي المنديل ده.

تفقدت المنديل ... بكره الساعة ١٠ في سينما ميترو ...

نفخ غوباشي باشا دخان سيجار .. يطالع المشهد الرومانسي عن كثب .. شائط من الأحمق الذي اتخذ مكانه في غيابه عن حبيبته المستقبلية، اشتعلت نار الغيرة في قلبه لا يرى سوى جسد لينا الأخاذ، خصرها النحيف ..أرجلها المكشوفة أسفل التنورة التي يعشقها ... ابتسمت في ثانية لرجل آخر ... جلس معها دقائق .. أما أنا قدمت لها الدنيا وما فيها .. اكتفى من تذوق رحيق الأجساد حين رآها ... جعلته يفكر بها وحدها دون أن تعطيه ابتسامة، أو كلمة طيبة .. وجد فيها ما لم يجده في باقي الفاتنات .. سعى إليها عند مغادرة يوسف ...

تغيرت ملامح وجهها ...صدرت له وش الخشب

:: مين اللي كنتي بترقصي معاه؟

... اكتفت بعدم الرد .. التقطت علكة من حقيبتها ... مضغتها

:: نسيتي عملت ايه عشانك؟

:: عملت ايه يعني؟

:: سبت مصالحي وشغلي في روما ... عشان أقابلك

:: وخلاص قابلتني ... اوريفوار

التفتت نحو الساقي لطلب مشروب .. تريد نسي سماجة لسانه البذيء ... أمسك ذراعها الأيمن عند محاولتها الفرار.

:: بقا كده ... يكون في علمك .. أي حد يفكر ياخدك مني هدفعه التمن.

:: انتا فاكرني باترينه .. ممكن تشتريني بفلوسك وألمظاتك؟

تركته وحيدا يأكل نفسه .. يملأه الحقد والغل .. لعن المجهول الأحمق الذي أخذ قلبها ... دفعها إلى التملق .. حجزت أرقى طاولة بين النبلاء .. كنت أنوي أن أقدم لها قلادة ذهبية أعلقها في رقبتها ... جهزت الفرقة الموسيقية واتفقت معهم على عزف لحن الوداع ... عندما أضع بصماتي على رقبتها ... حينها أتى شخص لا أعرفه ... سرقها في غفوة مني ...

... النساء تركع لي إرضاء لي ..وانتي تخذليني أمام الحاضرين .. غدا سيصبح جسدك الفاني ملكا لي ... ستخضعين لي دون إرادتك ....انتي ملكي ...هل تفهمين عزيزتي؟

... عوجل مسرعا إلى كورنر مائدة الجنرال ... مكان يسهر فيه صفوة المجتمع ... يصب الساقي الشمبانيا يخبطون كؤوسهم في بعض ...في صحتك ....في صحتك ..... ملتقى الأجانب ومستشاري المحاكم والطليان ... قرب إلى المدخل ليستقبله حارس المكان بصدر عريض وشارب منتصب ... فتح له الباب الكبير بعدما تلقى بقشيشا ... عكست أنوار الصالة على فرقة تعزف عودا شرقي .... التهى يوسف في لا مبالاة مصطنعة، يراقب الجنرال ... على بعد مترين .. خلع الكاب ووضعه على سطح المائدة ..لمعت خصال شعره الشقراء ..وعيونه الزرقاء ..التفت للساقي طلبا في كأس، معروف عنه إدمانه ..سكري يجيد تذوق الخمر .يعرف كافة أنواعه ومشتقاته .. عشقه للشمبانيا لا ينتهي ..مكانته ووضعه مرتع للإكراميات وللرشاوي .. علب سجائر ... قارورت خمر .. غوازي ... كل هذا مقابل صمته

فاحمة الشعر قوامها عجيب . ملامح مصرية أصيلة .. حاجبين رفعين ..وشفة كبيرة .. ووجه مستدير . .بجانب رجل ثري الهيئة، لم يرفع عينه من عليها، مسح خديها وشفتها بشبق شرب من أجله ثلاثة كؤوس إضافية جعلته يريل على زيه العسكري ...

تناغم الحاضرون مع أصوت العود المنشود ... واقترب من الإنجليزي الهائم في ملكوت اللحم المصري الأصيل.

... استأذن العساكر المحاوطون له في مقابلة الجنرال ...سبق صحفي ...

- كيف حالك يا صديقي؟ س

قالها في خمول ... قهقهة وزغطة ...

- من انت؟
- رشدي نجاتي ...جورنالجي في جريدة الأهرام
- ماذا تريد مني؟ ألا تراعي أنني مشغول في صب الشامبانيا
- عذرا .... سيدي.

وضع عينيه في عين الجنرال ...يراقب بصره الزائغ إلى فاحمة الشعر ... طفل صغير تعلق بلعبة .... الحراسة تراقبه أينما كان ... أصبحت المهمة صعب المنال .. جذب الترياق من جيب البذلة يجول بنظره أطراف المائدة .. سيطر الخوف عليه ... قلبه يدق بسرعة .. ارتفع الأدرنالين .. . إذا رآه أحد وهو يضع الترياق سينتهي أمره دون أدنى شك ... أعاد الترياق إلى جيبه مرة أخرى ...

- هل أعجبتك تلك السيدة؟
- ماذا تقصد؟

- تلك التي تقف مع زوجها في أخر المائدة ... اختيار حسن.
- أرقت من مضاجعة أبناء جلدتي ... المرأة الشرقية ذو طبع خاص.
- إذا عليك التجربة ..
- كيف؟
- معي فتاة خمرية حسناء تروق لك
- أين هي؟
- في الأزبكية – مرتع النساء الشرقيات

وقف الجنرال .. أخذه شغف ونشوة في معرفة مذاق اللحم الشرقي

- حسنا هيا بنا الآن ...
- أفضل ألا ترسل معك حرسك ... فالمكان آمن ونزيه
- انت تروق لي.

امر حرسه بالبقاء لحين رجوعه ... وجد باولو صديقه الجنرال يمشي مع شخص أول مرة يراه في حياته ... يذهبا إلى البوابة خارج القصر ... الجنرال غير واعي .. ليس مدرك عما يجول في عقله ... كلب يمشي مع تابعه مقابل شهوة ..دون معرفة سابقة ...

ركبا السيارة ... في يده زجاجة كونياك .. دائب في سكرة الحب

:: صدقني ستكون أجمل لحظة في حياتك ...

:: دعنا نرى سلعتك إذا .... كم الدفع مقابل الخمرية؟

:: أدركتني خطأ ...إنني اريد راحتك.

:: يبدو أننا سنصبح أصدقاء قريبا

:: بلى ..دون أدنى شك.

.::أحداث الشغب في الشوارع ازدادت الأيام الأخيرة ... كلهم يطالبون برحيل الإنجليز .. مجانين ...مخابيل ... يردون مزق بنود المعاهدة

:: اعتاد الشعب على النباح منذ سنين .. يريدون بطلا يخلصهم من قبضة العدالة ... يسعون إلى الخراب بأيديهم ... لم يتقبلوا مصيرهم المحتوم.

:: الجرائد تتكلم طوال الوقت عن بطولتك العظيمة في فض مظاهرة طلعت حرب ...

:: نعم ... يا صديقي ... لقد نلت وسام الشرف من الكولونيل تريفور .. انحنى لي جميع القادة المتربصون لأخطائي ... أتذكر هذا اليوم جيدا ... قتل ماريو بن اختي امامي عند فض النزاع .. صورته لا تفارق ذهني ... يطاردني في كوابيسي أينما حللت ...اللعنة على من قتلوه ...

أحرقت من داخلي نار غليظة لا أستطيع التحكم بها ...ماريو الذي كنت اعتبره ابني الروحي مات أمام عيني ... سفكت دمائهم ...أمرت الجنود بقتل المتطرفين الطائشين الذي يعتدون ذاك اليوم صوبت فوهة مسدسي تجاه صبي رمى حجر ..فقع عيني جندي ... حينها لم أدرك بنفسي وما أفعله ... رصاصة طائشة قتلت بها صبي ...

ذرف الجنرال دمعتين ...

أتى رجل معه نبوت ... رطم حصاني ... كاد يقتلني ... ولكن مشيئة الرب وهبتني حياة جديدة ... أين أنت يا ماريو ... اشتقت لك

:: هل تشعر بالذنب تجاه الصبي الذي قتلته؟

:: قلت لك ... لقد قتلته خطأ.

غمر الزجاجة في فمه ...بلع نصفها في نفس واحد بعدما استفاق من ذلة لسانه ... في لحظة ضعف باح عما في صدره ... لم يذكر في التحقيق قتل الصبي! ... خطة الاغتيال لم تدرس جيدا ... أربعة عساكر يحاصرون الجنرال على المائدة .. انكشف ... خياله لا يكف عن معرفة سبب فشل العملية ... ربما يريدون إلصاق التهمة به ... او حدفه إلى التهلكة .. أخذه إلى كنف عطيات .. الصدر المفتوح لزائريها ... لم تسبقه معرفة عطيات لكنه سمع عن معجزاتها الساحرة في تغيير المزاج ..



الأزبكية ... بائعة الهوى

عطيات قوادة عتيقة لها اسم يطلب وجسد فرمه الزمن، عاشقة للرذيلة من صغرها، نالت من عرق وركيها ما كنزته طوال سنين وافتتحت شقة للفواحش .. يعمر مشروعها زائريها من الإنجليز وأبناء البلد الراغبين في تذوق الصنوف المصرية، تقتني فتيات شابات يافعات يبحثون عن رزق يومهم الشاق، يشرف عليهن عبد الرازق الشهير حصبلة الأعور ... أخذ اللقب منذ الأزل عندما تلقى جرح سطحي أسفل عينيه اليمنى على يد الفتوة عطوة تركت أثر عميق في وجهه ... كلما نظر للمرآة تذكر ظل عطوة الذي هاب منه أبناء الحي، في أخر أيام عطوة صاح ضميره، تاب إلى الله ... أسكنته كلمات ربانية أنارت عقله .. صوت الآذان الذي رج قلبه خوفا من العذاب المنتظر ..يرى في كوابيسه زلفة جهنم .. زمهرير السعير ... رمى القروش والجنيهات أسفل قدم الداعر ... رفض الإتاوة من بيت عطيات بعد سنين حلت بالرفاهية والوئام ... أوقف مصالح الزبائن، أبلغ الكراكون عن أفعالها القذرة ... استئجار فتيات الليل باليومية من الكازينوهات والملاهي الليلة ... أقر الإتاوة على التجار والأغنياء .. لا يرد مظلوم مكسور الخاطر ... كلمة واحدة منه تخرس شنبات جحوش وعجول

تغير قلبه فجأة ناحية عطيات التي كانت الصدر الحنون الدافىء له في شبابه ونسي ما قدمته من مجاملات وملذات لأجله ... نال

حصبلة عقاب رادع، تجرأ العرص على الوقوف في وجه الفتوة فجعل منه أضحوكة ... عاركه .. جرحه بسكين في وجهه ليكون عبرة ممن سبقوه ... كان ذلك كفيلا في قطع لسانه طوال حياته .. إخراس الفتن والضغائن ... ضاعت مهابة عطوة عندما قتل في مظاهرة طلعت حرب ...زاح الهم والغم الذي أثقل صدر حصبلة .. .. شفي غليله المنفور طوال حقبة عجز عن التفوه .. عادت الخطيئة إلى البيت المشؤوم ... ...انقرضت أسطورة عطوة بو سنة...

دلف الجنرال إلى الحانة المشبوهة ... يترقب ضحكات الزائرين الخارجين .. بيت من ثلاثة طوابق .. كل طابق به ستة غرف مع أسبقية الحجز .. . لاح يوسف بيده تجاه بيت عطيات

.. استقبلهم حصبلة بحفاوة مع زجاجة بيرة يكنزها في غرفته .. لمعت عيناه تجاه النياشين والنجوم المرصوفة فوق كتفيه ... عرض عليه ثلاثة فتيات جميلات ... باهظي الثمن .. يظهرون إلى كبار الزوار فحسب .. شاور بسبابته على فتاة سودانية .. مدملجة ..

:: متغلاش عليك .. دي بتطلعش الا للعزيز الغالي

:: تمنها كام؟

:: عشان خاطر عيون الكبرة... ستة جنيه...

: سعرها سبعة جنيهات

استغرب من سعرها الزائد عن باقي الفتيات المجاورة ... وضع كفه على رقبته.

:: أضمنها لك برقبتي ... محدش لمسها من أسبوعين

:: خالية من الشوائب.

:: حسنا ..

أتت عطيات تتفقد فتياتها، تتفحص وتتمحص جسدهن

:: البت دي محجوزة لسعيد خفاجة، قوله يشوف غيرها.

:: اسكتي يا ولية ... بتقولي ايه، دي طرية ما تستحملوش

رمقته باشمئزاز.

:: دفع كام؟

:: ستة جنية ...وطفح قزازة بيرة

:: ماشي.

هز الجنرال رأسه موافقا ... دخلت الفتاة إلى غرفة العمل الطابق الأول .. وميض اللمبة الحمراء يشع أعلى باب الغرفة .. بينما جلس يوسف على الأريكة في هدوء .. لمحته عطيات غير راغب في اللهو،

:: شوف الافندي ده يشرب ايه؟

أردف حصبلة: تشرب ايه يا سعت البيه؟

:: نفسي جزعة ... خد دول هاتلي بيهم سجاير وخلي الباقي عشانك

:: فوريرة ..شوبيك لوبيك حصبلة بين ايديك

خلى المكان من العهر ... استغل يوسف فرصته في وضع ثلاثة قطرات من ترياق سم الأفعى في زجاجة البيرة التي نسيها الجنرال عند رحيله إلى الغرفة .. وضعها جانبا منه منتظرا اللحظة المناسبة

.. ليلة أعادت نشوته الغائبة، سحبت نفسا من رئتيها شهيق وزفير ...خار في وجهها كالثور، لعق رقبتها، مصمص خديها، نز عرقا ساخنا جرى على جبهته، البيرة كان لها مفعول في تأخير ذروته، ثلث ساعة بدت كأنها ثلاثة أعوام دمر أنوثتها الرقيقة الناعمة، غط فوق الثدي الناهد ولم تملك إلا ان تغمض عينيها .. قشعريرة زائدة .. تدارك نفسه ومسح خطيئته في الملاءة ودس قميصه في البنطلون .... جف حلقه ..شهق جوعا ..

اقفل الباب .. دائخ ... يستجمع قواه الجسدية، يفرك فروة رأسه، متعطشا لمشروب يبقيه في وعيه .. نزل من السلم يتسند على أثاثه .. أظهر يوسف الزجاجة من تحت قدميه ..

:: أخبرني ..ماذا فعلت أيها الشقي؟

شهق في سعادة غامرة مع ضحكة بلهاء.

:: تركتها هامدة مستلقية في الفراش.

:: يا لك من شرس.

صب له كأس بعدما جفت ثنايا شفتيه ... أخذ كاسه في عطش .. في صحتك ...فتح فمه اقترب الكاس من المريء ينتظر اللحظة الحاسمة ولكن توقف عندما رآه غارق في تفكيره العميق لا يشاركه فرحته وعنائه ... أوجب عليه معاونته وتحفيزه.

:: ما لي أراك حزينا ... يا صديقي؟

أخذ كأس آخر من النيش .. صب له .. شعر أنه في مأزق، إذا شرب السم معه سيموت لا محالة ...وإذا لم يشرب سيشك في أمره.

:: أشكر الظروف التي جمعتني بك ...رشدي ..

أخبط الكأسين في بعض أصدرت صدى صوت طقه ... في صحتك يا صديقي ... أدخل لعابه واقفل فمه متظاهرا في شرب كاسه الممتلىء، بعدما بلع الجنرال كأسه كله تركه هاويا خالي الوفاض .. التفت يغني ...my sweet baby.... في شجن ورح معنوية دافعة نحو الأمل الذي سلب منه عند قتل ماريو ...وجد أن الحياة ابتسمت له بأكاليل الزهور ورائحة النساء المتعطرة، شهوته التي

كبتت فاضت عنائها وشقائها، بات في موضع مزري عندما توقفت دقات قلبه عن الخفقان .. لا يستطيع التنفس .. يفتح بلعومه شاهقا .. تتوسع حدبة عينه، يمسك قلبه المنفطر الممزق أشلاء، ارتد ثم سقط على بطنه، تأمل رجفة خروج روحه الخبيثة، انتزع من سترته حفر بارز بندقيتين متقاطعين فوقهما تاج ملكي .. تأمل وجه غريمه .. انتقل إليه شعور غريب لا يعرفه، أول مرة يقتل فيها نفس بشرية انساب الحبر الأزرق على الماء النقي فبات صبغة زرقاء فاقعة اللون .. هلع هاربا خوفا من رؤيته إلى لوكاندة ستيفانو ... ينتظر بفارغ الصبر رسالة من التعلب

